قصص

أزهر جرجيس

صانع الحلوى

مكتبة
الفكر الجديد
12-08-2019

المتوسط

صانع الحلوى

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٧ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

S'aneà Al-Halwa ***by*** "Azher Jirjees"
Arabic copyright © 2017 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: أزهر جرجيس/ عنوان الكتاب: صانع الحلوى
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-07-9

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

أزهر جرجيس

صانع الحلوى

المتوسط

فقط أخبِرْهُم بالحقيقة، وسيتّهمونكَ بكتابة الكوميديا السوداء.

تشارلز ويلفورد

الكوخ الهنغاري

في خريف العام ٢٠٠٦، وصلتُ سيراً على الأقدام إلى هنغاريا. كنتُ وحيداً أمشي على غير هدىً بين الغابات حتّى لاح لي من بعيد خيال كوخ عتيق. كان كوخاً منفرداً قرب حظيرة للحمير، تنبعث منه رائحة شواء غريبة. أقبلتُ عليه بما بقي لي من همّة، فسمعتُ هتافاً من بعيد: "Stop". توقّفتُ حينئذ، ورفعتُ يدَيّ إلى الأعلى في إشارة للتسليم. أقبلتْ نحوي عجوز نحيفة، تحمل بندقية صيد مَحشوّة. رطنتْ معي بالهنغارية. لم أفهم ما قالتْ، ولولا حفنة الكلمات الإنكليزية التي حفظتُها قبل عشرين عاماً في المدرسة الثانوية، لكنتُ الآن في عداد الموتى. أخبرتُها بأنّي تائه وجائع، وأنّي هارب من الموت، فأخفضت العجوز البندقية عندئذٍ، وقالتْ: اتبعني.

أدخلتْني إلى الكوخ، وقدّمتْ لي كبدة دجاج مهروسة بالسمن والشوفان، تناولتُها بنهم، وعيناي تدوران في المكان. كان كوخاً واسعاً من الداخل، مليئاً بقناني النبيذ الفارغة. وكانتْ رائحة البول تنبعث من الأرض والجدران. أخبرتْني السّيّدة باربارا فيما بعد بأنّها تمتهن صناعة النبيذ البيتي، لتبيعه إلى صاحب بار في مدينة بودابست، وأنها اتّفقتْ مع أحدهم قبل خمسين عاماً على صفقة نبيذ مُعتّق، ستجعل منها امرأة غنيّة. قالتْ بأنها تملأ القبو ببراميل النبيذ الخشبيّة، وإنها سعيدة في عملها، ثمّ طلبتْ منّي أن أقصّ عليها حكايتي.

أخبرتُها الحكاية موجزةً، فأشفقتْ، واغرورقتْ عيناها بالدمع، إذ عرفتْ بأنّي هارب من الحرب، وطلبتْ منّي البقاء. الهاربون من الحرب مثيرون للشفقة. وبلا تردّد، وافقتُ. عمل ومأوى، ماذا يريد الغريب أكثر من ذلك؟! لقد اتّفقنا على أن أعمل سبع ساعات في خدمة الحمير، ورفع الروث من تحتهم مقابل ثلاث وجبات من كبدة الدجاج الساخنة، ونومةٍ في الكوخ. لم يكن عملاً شاقّاً على كل حال.

وذات ليلة، تنامى لسَمْعي صوت من جهة القبو. كانتْ براميل النبيذ تهتزّ بقوّة. حذّرتْني باربارا من الدخول إلى قبو النبيذ سلفاً، لكنّها كانتْ تغطّ في نوم عميق، فأزحتُ الغطاء عن جسدي، وتناولتُ ساطور اللحم، وهبطتُ السّلّم حافياً. كنتُ أسير على أطراف أصابعي متمتماً بكليشة للحفْظ، تعلّمتُها من جدّتي سليمة. أوقدتُ مصباح الزيت في الأسفل، وراقبتُ البراميل. كانتْ ثابتة، وليس من صوت في المكان غير صوت شخير باربارا الذي يتسرّب من الأعلى. اطمأنّ قلبي حينئذٍ، فأطفأتُ المصباح، وصعدتُ السّلّم على مهل، لكن اهتزازاً خفيفاً صدر من أحد براميل النبيذ جعلني أعود أدراجي، لأرى ما يحدث! أوقدتُ مصباح الزيت من جديد، وحملتُه، وتوغّلتُ في القبو أكثر، فكنتُ كلّما اقتربتُ خطوة، ازداد الاهتزاز عنفاً حتّى وصلتُ عند البرميل الأخير. كان يهتزّ مثل طفل، أصابتْه نوبة صَرَع. وضعتُ الفانوس جانباً، وتناولتُ ذراعاً حديدياً، كان مُلقىً على جنب، حشرتُه في غطاء البرميل، وفتحتُه، فقفز منه قزمٌ عارٍ.

يا إلهي! قزمٌ محشورٌ في برميل نبيذ! أرعبَني المنظر، فبدأتُ بترديد تميمة الحفْظ بصوت مرتفع. لكنّه قاطعني:

- لا داعيَ لها، لا تنفع.

- ما هي؟!

- التميمة، دعكَ منها، فقد جرّبناها قبلكَ، ولم تنفعنا بشيء.

أدهشَني كلام القزم، وكدتُ أفقد عقلي. يا ترى مَن هؤلاء الذين يتكلّم بالنيابة عنهم؟! فقال: "لا تفزع، يا عزيزي، فمصيركَ سيكون مثل مصائرنا." سألتُه ماذا يقصد، فخفّف من نور المصباح في يدي، وجلس على البرميل المجاور، ثمّ شرع يقصّ لي الحكاية. قال بأن ليس ثمّة نبيذ في هذه البراميل، بل أقزامٌ منقّعون في بول الحمير. لقد بَنت السيدة باربارا هذا الكوخ منذ خمسين عاماً، من أجل اصطياد الهاربين من الحروب، وحَشْرهم في براميل النبيذ الخشبية. كانتْ تُطعمهم كل يوم كبدة القنافذ المهروسة بالزيت، التي تُحوّلهم تدريجياً إلى أقزام، ثمّ تحشو بهم براميل النبيذ المملوءة ببول الحمير، وتبيعهم شراباً للعفاريت. ربّما يستغرق الأمر سنوات طويلة حتّى يختمروا، ويتحوّلوا إلى شراب، لكنّها تقبض من السّيّد مارك نصف الثمن مُقدّماً على كلّ هاربٍ، تُمسك به.

- ومَنْ يكون السّيّد مارك هذا؟ سألتُه.

- صاحب حانة، يرتادها العفاريت، أجاب، ثمّ أردف:

- هل تناولتَ من ذلك الطعام؟

- نعم، ثلاث وجبات في اليوم، لكنها قالتْ بأنه كبدة دجاج بالسمن والشوفان.

- هذا ما تقوله للجميع، لكنّ الحقيقة غير ذلك، إنها كبدة القنافذ الجبلية، وليس الدجاج.

أرعبتْني الحكاية، فمرّرتُ يدي على جسدي محاولاً الاطمئنان على

حجمه الطبيعي، ثمّ سألتُه عن السّرّ وراء ذلك، وما الذي يجعل عجوزاً تُنقع الهاربين من الحروب في بول الحمير؛ لتبيعهم للعفاريت؟! فقال بأنّه حين صغرَ حجمه، وجاء اليوم الذي قرّرتْ فيه باربارا حَشْره داخل برميل البول، سألها عن ذلك، فضحكتْ بصوت مجلجل، وأجابتْ بجملة واحدة: "اسمع، أيها القزم: حين تشتعل الحرب في طرف من هذه الأرض، فإنّ سوق التسلية يصبح رائجاً في الطرف الآخر."

في الواقع، لم أفهم ما قال ذلك القزم المنقوع، لكنّي سألتُه عن اليوم الذي سأتحوّل فيه إلى نبيذ للعفاريت، فضحك، وقال: "أووووه، ما يزال الوقت مبكراً، يا زميلي، فأنا قد هربتُ من حرب تشرين، وما أزال لم أختمر بعد .. أعدني إلى البرميل، أرجوكَ، فقد اشتقتُ إلى طعم بول الحمير." غطّستُه في البول حينئذٍ، وأحكمتُ الغطاء عليه، ثمّ أطفأتُ المصباح، وعدتُ إلى الفراش. وفي الصباح، استيقظتُ على صوت العجوز باربارا:

- سليم، سليم، استيقظ، يا عزيزي، لقد حان موعد الطعام.

حانة المشرق

ذات يوم، فقدتُ ظلّي. لا أدري كيف حصل ذلك، لكنّي حين التفتُّ إلى الوراء، لم أرَ لي ظلاً قطّ. كنتُ أجوب شوارع المدينة متسكّعاً بلا ظلّ، مع بقعة دم كبيرة على معطفي. لا أدري من أين جاءتْ، لكن المدينة بدتْ مهجورةً ذاك المساء الكانونيّ البارد. كان زجاج الحانات متناثراً على الأرصفة، والطُّرُقات خالية إلا من القطط والكلاب السائبة!

من بعيدٍ، رأيتُ كلباً يجرجر بجثّة من تحت لافتة ضوئية مُهشّمة. أقبلتُ عليه محاولاً إبعاده، لكنه لم يكترث. صرختُ به محاولاً إخافته، ولكنْ، بلا جدوى، فقد كان صوتي يتلاشى قبل أن يصل إليه. شعرتُ حينها بأنّ حنجرتي تُطلق هواءً ساخناً بدل الكلام. وحين عجزتُ عن لَفْت أنظار الكلب، وقفتُ أراقب ما سيفعل. لقد بدا لي كلباً مألوفاً. اقتربتُ منه كثيراً، أمعنتُ فيه النَّظَر، فتذكّرتُ بأنيّ قد رأيتُه قبل ساعتَيْن من الآن تقريباً.

كنتُ إذ ذاك جالساً أحتسي الشاي في حانة المشرق، وكان العمّ رؤوف يفاوضني على ثمن تركيب لافتة ضوئية جديدة للحانة. عندئذٍ دخل رجل عجوز، يرتدي معطفاً رثّاً وقبّعة ممزّقة. كانتْ تفوح منه رائحة الخمر. ألقى التحية، وطلب من النادل قطعة لحم وزجاجة نبيذ. سكب النبيذ على قطعة اللحم، ورماها نحو كلب ينتظر عند الباب، ثمّ غادر. أمسك الكلب بقطعة اللحم، وبدأ يقطّعها بأضراسه. لكنّه اضطرّ أن يتخلّى عنها وينصرف حين سمع صوت إطلاق ناري من بعيد.

كانتْ مجموعة من الملثّمين يُطلقون النار في الهواء، ويثيرون الفزع بين المارّة. أغلقوا شارع الحانات، وألقوا قنبلة صوتية قرب الحانة المجاورة، ثمّ فتحوا النار على الزبائن وزجاجات الخمر المصطفّة على الرّفّ، وهم يُكبّرون. لقد سجّلوا انتصاراً عظيماً على قِناني البيرة وزجاجات العَرَق والسُّكارى العُزَّل، ولا شكّ أنّ غزوتهم ستُكلَّل بالظّفر هذه الليلة. انتقلوا بعد ذلك إلى حانة المشرق، التي أجالس فيها العمّ رؤوف. كنّا حين سمعنا صوت القنبلة الصوتية، اتّخذنا وَضْع الانبطاح تحت المناضد، بانتظار مصائرنا. رفس أحدُهم البابَ حينذاك برجله، ثمّ بدأ سَيْل الرصاص يُمطر فوق رؤوسنا. حطّموا الحانة بما فيها، وملؤوا الجدران بالرصاص.

من تحت المنضدة، كنتُ أراقب المشهد بفزع كبير. كان نهر الخمر يمتزج بالدم، ليصنع لوحة سريالية مرعبة، بينما راح الملثّمون يمشّطون الأجساد المرميّة على الأرض، ويُجهِزون عليها وهم يُكبّرون "الله أكبر .. الله أكبر ..". أغمضتُ عينيّ حينذاك بانتظار رصاصة الموت، لكنّها أخطأتْ، وأصابتْ رأس العمّ رؤوف الذي كان يمسك بخاصرته محاولاً إيقاف نزيف الدم قبل ذلك.

غادر الملثّمون حانة المشرق بعد أن اطمأنّوا لموت الجميع. توقّف بعد ذاك صوت لعلعة البنادق، فشعرتُ بالأمان، وقرّرتُ الخروج من بحيرة الدم والخمر تلك. نفضتُ عنّي شظايا الزجاج المتناثر، وأزحتُ جثّة العمّ رؤوف، ثمّ تسلّلتُ إلى الخارج. كان الكلب خائفاً، ينتظر عند نهاية الطريق مثل طفل يشاهد فيلم رعب للكبار فقط. رائحة البارود تملأ المكان، والخراب عنوان المدينة. نظرتُ يميناً وشمالاً، ثمّ هممتُ بالمغادرة، لكن طلقةً مرّتْ قرب أذني اليمنى، جعلتْني أتسمّر في مكاني.

- مكانَكَ، هتف أحدهم.

استدرتُ، لأجد ثلاثة مُلثّمين يُصوّبون رشّاشاتهم نحوي.

- تشهَّدْ على روحكَ، يا سكّير.

يا إلهي! كيف أُقنع هؤلاء السَّفَلَة بأنّي كنتُ أشرب الشاي في لقاء عمل مع صاحب الحانة؟! وأنّي، رغم اجتيازي عتبة الثانية والثلاثين من عمري، ما أزال لم أتعرّف إلى طَعْم الخمر بعد؟!

قلتُ:

- والله، مو سكّير.

فأطلق أحد الملثّمين رصاصة على ساقي اليمنى وهو يردّد: "لا تُقسمْ بالله، يا فاسق." ثمّ أصاب فخذي الأيسر بأخرى، فأمسيتُ غير قادر على الحركة. التفتُّ نحو الكلب حينذاك في نظرة كانتْ أقرب إلى الاستعطاف، لكنه لم يقدر على فعل شيء سوى النباح. كان ينبح بلا توقّف، فأطلق الملثّم خرطوشاً في السماء لإخافته، ثمّ وجّه الرشّاش نحوي، وأرسل رصاصة استقرّتْ في جبهتي. شعرتُ بماء بارد ينزل على عينَيّ، ثمّ كتلة حديدية تهبط فوق صدري. لقد أصاب الملثّم اللافتة الضوئية، ليُسقطها فوقي، ويرحل مع رفاقه.

كنتُ بلا ظلّ، أراقب الكلب وهو يجرّ الجثّة من تحت اللافتة. لقد تمكّن أخيراً من إخراجها. كانت الجثّة لشابّ ثلاثيني، يرتدي معطفاً رمادياً طويلاً. فيها ثلاث إصابات، واحدة في الساق اليمنى، وأخرى في الفخذ الأيسر، وثالثة في الجبهة.

سَحَلَ الكلبُ الجثّةَ نحو الحديقة. نبح عالياً، ثمّ دفعها في خندق صغير، وبدأ يحثو عليها التراب. لقد كان كلباً رحيماً. تمنّيتُ لو أنّي أستطيع الانتظار ريثما أطعمه اللحم المنقّع بالنبيذ، لكنّي مضطرّ للالتحاق بجثّتي .. أراكم في جهنّم.

صانع الحلوى

- علبة حلوى، من فضلكَ.

- حسناً، سيّدتي، العنوان لو سمحتِ.

- اكتبْ عندكَ: شارع الملكة، عمارة غاملي غرينسا، الطابق التاسع، الشّقّة رَقْم ٢٣٤.

- شكراً لكِ، سيّدتي، سيصلكِ الطلب بعد نصف ساعة.

لم يطرأ في بال حنّا العراقي أنه سيمتهن، ذات يوم، صناعة الحلوى. كان يحلم، منذ صباه، أن يكون مُخرجاً سينمائياً، يصنع الأفلام، ويروي الحكايات، فقد دار في رأسه شريط الموت منذ أول رأس مقطوع رآه عند الباب. كان ذلك رأس أبيه الموضوع في كيس أسود، والمعصوب بخرقة مخطوط عليها: "كافر".

في ذلك اليوم، قرّرت الزوجةُ دفنَ الرأس في حديقة المنزل. لقد أودعتْه في حفرة صغيرة عند شجرة السدر العالية، ثمّ هالتْ عليه التراب، وغرستْ فوقه صليباً خشبياً. أما الصبيّ، فكان يراقب المشهد بهدوء مانحاً خياله جناحَيْن عظيمَيْن للتحليق، فصنع فيما بعدُ أفلاماً، لا تشبهها الأفلام، ولم يكن يعوزه سوى أن يقف خلف الكاميرا، ويهتف: "أكشن". كان الرأس المدفون تحت السدرة هو ما يمنحه تلك الحكايات الفنطازية، ممّا

حدا به، بعد أن كبر واتخذ قرار الهجرة، أن يتسلّل ذات ليلة نحو الحديقة، وينبش التراب لإخراجه. لقد أخرج جمجمة أبيه من تحت السدرة بهدوء، لفّها بكيس نايلون، ودسّها في حقيبته، ثمّ عاد إلى الفراش. كانت الأمّ المسكينة تغطّ في نوم عميق، ولم تشعر بما يجري حولها. وفي الصباح، ودّعها وهو يحمل الرأس في الحقيبة.

لقد قرّر حنّا أن يصنع من حطام أبيه فنّاً، فأطلق ساقَيْه للريح، وتساقطتْ تحت قَدَمَيْه الحدود مثل قطع الدومينو حتّى وصل هولندا. لكنهم، في هولندا، ومن أجل أن يكون مخرجاً، فرضوا عليه ألا يقترب من سينما الموت، فحديث الموت غير مرغوب فيه لدى الهولنديين. السعداء لا يُفضِّلون حكايات الموت.

- عمّاذا أتحدّث، إذن؟! قال مستهجناً قرار اللجنة التي استبعدتْ فيلمه من المسابقة.

- تحدّثْ عن الحبّ، عن البحر، عن البلابل، أجاب رئيس اللجنة ببرودٍ قاتل.

- لا، يا أولاد البلابل، تمتم حنّا بصوتٍ خفيض، وهو يغادر القاعة.

وفي اليوم التالي، ذهب إلى كابينة الهاتف العمومي. حشر بطاقة الاتصال الدولي في جهاز الهاتف، وضرب رَقْماً طويلاً، يبدأ بـ ٠٠٩٦٤، فكان الأثير يحمل صوت أمّه مثل نسمة. لم يُخبرها بقرار اللجنة، بالطبع، فقلوب الأمّهات يقتلها فشل الأبناء، بل طلب منها أن تملي عليه مقادير حلوى الموت، وهي حلوى تُصنَع في ذكرى الميّت هناك. لقد قرّر أن يُسرّب عدوى الحزن بين الهولنديين.

- نشا وسمن وسكّر وهال، ردّت الأمّ، فأغلق حنّا سمّاعة الهاتف، واتّجه صوب السوق.

كان في إحدى الزوايا حانوت لبيع المواد الغذائية التي تأتي من بلاد المشرق، يعود لمهاجر إيرانيّ، قذفه شبح الموت هو الآخر نحو هولندا. ألقى عليه التحية:

- مرحبا، أغا.

- أهلاً، أغا حنّا، كيف الأهْوال؟

- كُل شي تمام، عندك نشا؟

- بلي أغا، كُل شي عندي، تَفَرّل.

غطس حنّا بين رفوف الدكّان الشرقي، ليعود محمّلاً بكيس نشا وعلبة سمن، وسكّر وهال. دلف إلى المنزل. وضع المواد جانباً، وأمسك منشاراً كهربائياً، أزال به الجدار الفاصل بين المطبخ والصالة. انزلق إلى السرداب. أحضر منضدة فائضة عن الحاجة. صفّها مع منضدة الطعام، ليحيل المكان إلى مطبخ كبير. لقد قرّر أن يجعل من بيته الصغير مصنعاً للحلوى، حلوى الموت التي ستجعل منه نجماً في سماء أمستردام والقرى المحيطة بها. ستتبادل النسوة رَقْم هاتفه، ويُدمن الرجال على حلاوته إدمانَ الغريب على الوجع. شطف حنّا قدراً كبيراً، ملأه بالماء، وأوقد النار تحته، أذاب فيه النشا، ثمّ أضاف إليه السّكّر والسمن النباتي، وبدأ بالتحريك. ترك القدر يهدر على نار هادئة، وذهب إلى غرفة النوم، أنزل الحقيبة من فوق الخزانة، أخرج منها جمجمة أبيه، حملها إلى صدره، وعاد إلى المطبخ. دسّ الجمجمة في القدر، وعاود تحريك الحلوى من جديد. بدأتْ حينذاك الحلوى بالتماسك، أخرج

الجمجمة منها، وتركها تبرد. قطّعها بعد ذلك، ووضعها في علبة كارتون، مطبوع عليها شعار: "حلوى حنّا" لينتشر خبرها في الغد مثل النار في الهشيم. لقد تلاحقت الطلبات على مصنع الحلوى، وأدمن الهاتفُ على الرنين.

أعدَّ حنّا العلبة، واتّجه بسيّارته الصغيرة نحو شارع الملكة. انعطف نحو الجادة الثانية إلى اليمين، ثمّ توقّف أمام عمارة غاملي غرينسا. وضع سبّابته على لائحة الأرقام عند الباب الرئيس، وضغط على زر الحاكية أمام الرَّقْم ٢٢٤.

- أنيتا كولن، تفضّل، قالت السيّدة المغناج عبر الحاكية.

- أنا حنّا من مصنع الحلوى، ردّ، فانفتح الباب.

ولج إلى الداخل، وانعطف نحو اليمين صوب المصعد. اختار الطابق التاسع، لكنّه عرقل إغلاق باب المصعد ريثما تصل إحداهنّ. كانتْ سيّدة تروم العروج نحو الطابق الخامس. تنهّدتْ حين تغلغلتْ رائحة الحلوى في منخرَيْها:

- مممم، إنها حلوى حنّا، أليس كذلك؟

- نعم، سيّدتي، هي كذلك.

- شكراً لك، حنّا، لقد جعلتَ لحياتي معنىً، ردّت السيّدة بسعادة غامرة.

- هل لي بمعرفة السبب، سيّدتي؟

تِن تِن، وصل المصعد إلى الطابق الخامس، ولم يُكمل حنّا حديثه. لقد غادرت المرأة بعد توديعه بإيماءة، أردفتْها بقبلة هوائية.

إلى الآن، لا يعرف حنّا السبب وراء اشتهار حلواه. كان يريد لها أن تكون حلوى غريبة، تُصيب مَنْ يتناولها بالاكتئاب، لكنّه بات يرى العكس تماماً. لقد أصبحت النسوة الهولنديات أكثر سعادة من ذي قبل. كان حنّا يبادلهنّ ابتسامات الرضى بحيرةٍ كبيرة، ولولا عمارة غاملي غرينسا، لما زالتْ حيرته.

وصل إلى الطابق التاسع. نظر بالمرآة قبل أن يغادر المصعد. بلّل سبّابته، وسَفَطَ بها حاجبَيْه، ثمّ عدّل ياقة قميصه، وخرج. كان دهليز طويل تصطفّ على جانبيه أبواب كثيرة. وقف على باب الشّقّة ذات الرَّقْم ٢٣٤. ضغط على جرس الباب. فتحتْ امرأة أربعينيّة شقراء، ترتدي روب حمّام أبيض، وتغطّي شعرها بمنشفة مبلّلة. كانتْ تحاول إعادة خصلة متدلّية داخل المنشفة. يبدو أنها خارجة توّاً من الحمّام. تناولتْ منه علبة الحلوى، وَدَعَتْهُ إلى الدخول ريثما تأتيه بالنقود.

لم يعتدْ حنّا الدخول إلى بيوت الزبائن، لكنّه كان يرغب بمعرفة السّرّ وراء لهفتهم لحلواه. كان يطمع في تلك الأربعينية الحسناء أن تُخبره، وقد فعلتْ، إذ عادتْ بعد دقائق وهي ترتدي ثوباً قصيراً، وتدعوه لتناول فنجان قهوة.

- شكراً لكرمكِ، سيّدة أنيتا؟ قال حنّا.

- لا تقلْ ذلك، يا عزيزي، فلولاكَ لانتهتْ حياتي، ردّت السّيّدة وهي تجرجر بثوبها في محاولة لسَتْر ما بين فخذَيْها، فقد كان القمر بازغاً من هناك.

- لولاي أنا؟! سأل باستغراب، وهو يراقب ضوء القمر تحت.

- نعم، أنتَ، فَمَنْ غيركَ هنا؟! أنتَ صانع المَسَرَّة.

- لكنّها حلوى حزينة، يا سيّدتي.

- أعلم ذلك جيداً، وهذا سرّ سعادتي. دعكَ من التواضع الزائد، يا حنّا. أنتَ صانع حلوى عظيم.

"يا الله! يبدو أنّ هذه المرأة مجنونة حقاً! كيف يُمسي الحزن سرّ السعادة؟! أنا أصنع حلوى الموت المطبوخة برأس أبي، وأبيعها على الهولنديين، كي تصيبهم عدوى الحزن، وهي تقول لي بأنّ الحزن سبَّب لها السعادة! أيّ منطق هذا؟!" قال حنّا في سرّه وهو يتناول فنجان القهوة من السّيّدة السعيدة.

- لكنّي لا أراكِ تتناولين الحلوى.

- لا أفضّل أكل الحلو حفاظاً على رشاقتي. أطلبها من أجل عشيقي فقط.

- عشيقكِ؟!

- نعم، عشيقي، كان قد هجرني فيما مضى، وحين تناول الحلوى لدى رفيقه أول مرّة أصابتْه بالحزن، فعاد لي. لا يداوي قلب رجل حزين سوى امرأة.

- لكنّي لا أراه، هل هو في العمل؟

- كلا، في القبر، لقد قتلتُه، وما أزال بانتظار عشيق آخر.

كاد حنّا أن يُصعق لكلام المرأة. يا الله! إنه يجالس قاتلة! أيّ ورطة تلك التي جلبتْها له عمارة غاملي غرينسا؟!

- قتلتيه؟! قال بدهشة فاغراً فمه.

- نعم، لقد جعلتُه مدمناً، كلّما حاول الإفلات، أطعمتُه قطعة حلوى، ليعود إلى حضني من جديد، وفي ليلة من الليالي، شعرتُ بأنّه يخونني عبر الهاتف مع إحداهنّ، فأطعمتُه علبة حلوى كاملة، جعلتْه يصهل مثل حصان هائج.

- آه، وماذا جرى بعدها؟

- لا شيء، كان يضاجعني الليل كله، وفي الصباح خمد.

تنهّد حنّا بعدما اطمئنّ إلى أنها لم تكن جريمة قَتْل بالمعنى العُرْفي، وقال ممازحاً:

- يبدو أنّكِ تحبّين الأحصنة!

- أحبّ قوّتهم، ردّت السّيّدة أنيتا بغنجٍ، ثمّ أردفتْ بضحكة مجلجلة.

عاود حنّا النَّظَر إلى القمر البازغ طرفه من تحت الثوب القصير وهو يتمتم بصوت خفيض: "الآن عرفتُ سرَّكِ، أيتها الحلوى العظيمة." ثمّ استأذن صاحبة القوام الرشيق بالانصراف مادّاً يده، لكنّها جذبتْه إلى صدرها برشاقة. قبّلتْه، وأطعمتْه قطعة حلوى، ثمّ اقتادتْه بغنجٍ نحو الفراش، فضاجعها، وغادر الشّقّة. "صانع حلوى الموت لا يموت" همس في أذنها عند الباب، ومضى.

عاد حنّا إلى الدار. خلع ثيابه، وغطس في حوض الاستحمام. كان لا يشعر ببرودة الماء، فشريط الكاميرا قد شرع بالدوران في رأسه. خرج من الحوض. لفّ جسده بمعطف سميك، واستلقى على الكنبة. حاول أن ينام،

لكنْ، دون جدوى. كان شيطان السينما قد تسلّل إلى رأسه، وجعله يفكّر بأنيتا "بطلة فيلمه الجديد". قام أخيراً نحو الدُرج في غرفة النوم. أخرج دفتراً وقلماً، وشرع في كتابة سيناريو فيلم، سيقدّمه إلى لجنة الاختبار من جديد. لقد خطّ على الصفحة الأولى:

صانع الحلوى / سيناريو وإخراج: حنّا العراقي

حصان القصب

لم يعد قادراً على مواصلة الكلام، فتوقّف عن الترجمة، وصار يبكي مثل طفل. كانتْ تلك المرّة الأولى التي يصمت فيها أثناء جلسات التحقيق. لقد استمع لآلاف الحكايات من قبل، وترجمها دون تأثّر، فقد اعتاد أن يتظاهر بالجَلادة أحياناً، والبَلادة أحياناً أخرى، وكان لا يكترث لمشاعر المهاجرين وهم يروون قصصهم وحكاياتهم. المترجم كالطبيب، يخلع قلبه قبل أن يلج صالة العمليات. لكنّ حكاية الشابّ نبيل فوزي كانتْ مُؤسيةً، آلمتْه كثيراً، ولم يقدر على مَنْعَ نفسه من البكاء.

كان نبيل مُطارَداً، بسبب ثأرٍ بائت، لجريمة لم يرتكبها، فقد كان أبوه يعمل سائقاً بين المدينة والأرياف، وفي ظهيرة ساخنة، دهس عجلاً، وهرب. لم يكن الأب قادراً على دَفْع الدّية، فقرّرتْ تلك الجماعة أن تكون حياة الابن دِيَةَ العجل المدلّل. حياة العجول أغلى من حيوات سيّئي الحظّ في البلدان الساخنة. أفلتَ نبيل في ذلك اليوم الصاخب، ولكن الأقدار أوقعتْه في قبضة جماعة أخرى، اقتادتْه إلى جملون مهجور خارج المدينة. أُلقي مكتوفاً هناك، وحُرم من الطعام لثلاثة أيام. حاول أن يفهم ما يدور حوله، لكنْ، دون جدوى، فالحرّاس متكتّمون، وكبيرهم "الباشا" لم يصل قبل ثلاثة أيام بلياليها. وحين وصل كان برفقته طبيب.

"دكتور، شوف شغلَكْ." قال الباشا بعد أن أمر بإحضار نبيل، فأخرج

الطبيب أبرة مخدّرة، غرسها في ذراعه ببرود. نام لساعَتَيْن تقريباً، لكنه حين أفاق، كانتْ عينه اليمنى معصوبة، والصداع يكاد يفجّر رأسه. "وينْ عيني؟ وينْ عيني؟ وينْ عيني، يا أولاد الكلب؟" كان نبيل يهتف، ولا أحد يجيب. لقد سلبَهُ الباشا عينه اليمنى، وغادر. صرخ المسكين بعد ذلك، لطمَ، ناحَ، ولولَ، بكى، وفي النهاية همدَ. لقد صار أعور العين، وعليه أن يقضي حياته بعين واحدة. "لا بأس." قال في سرّه وهو ينتظر أمر الباشا للإفراج عنه بعد أن يئسَ من عودة عينه. لكن الباشا لم يعد إلا بعد عشرة أيام، ولم يكن بمفرده. لقد عاد برفقة الطبيب ذاته، "دكتور، شوف شغلَكْ."

حاول نبيل الفرار هذه المرّة، لكنْ، دون جدوى. كان مشدود الوثاق. وبعد ساعات، أفاق من البنج. هَذى، ثمّ بكى بعد أن شعر بألم في خاصرته. لقد ذهبتْ كليتُه اليسرى، وصار لزاماً عليه أن يقضي حياته بكلية واحدة بعد أن تُرك وحيداً في ذلك الجملون القذر.

إلى هنا، لم يتأثّر المترجم بالحكاية، ولم يتوقّف عن مواصلة نقلها إلى الألمانية. كان يُترجم الكلام، ويضحك في سرّه: "هِه، كذب بكذب" فالمهاجر كاذب حتّى يثبتَ صِدْقُه، هذا ما يؤمن به العاملون في دوائر الهجرة عادة. لكنّ قصّة الشابّ نبيل فوزي لم تنته بعد. لقد تعكّز على الأرض، وخرج من الجملون. كان عليه أن يُكمل الطريق بأيّ ثمن. زحف حتّى وصل إلى الجادّة الرئيسة. رمى بنفسه على الإسفلت، علّه يحظى بمُنقذ. مرّت الساعات، والطريق فارغة. سقط قرص الشمس، وحلّ الظلام. انفتق خيط العملية، وتضاعف الألم، فأُغميَ عليه. وفي الصباح، أفاق، ليجد نفسه في المشفى. لقد عثر عليه أحدُهم في الليل، ونقله إلى هناك. وحين استعاد وعيه، قدّم شكوى لدى الشرطة، لكنها قُيّدتْ ضد

مجهول. المجهول هو المجرم صاحب الإضبارة الأكبر في مراكز الشرطة. كَسَلُ المحقّقين جَعَلَهُ المتّهم الأول في العالم.

آمن نبيل في تلك اللحظة بأنْ لا مكان له في وطن سلبه عينَه، وإحدى كليتَيْه، وأضاع حقّه مثل قشّة في حقل شوفان، فدفع كل ما يملك من أجل أن يعبر الحدود نحو أوربا. سافر بجواز مضروب نحو تركيا، ومن هناك، سيعبر الضّفّة نحو اليونان. لكنه، لم يزل سيّئ الحظّ، فقد نشب بينه وبين المهرّب الساقط خلاف، جعل الأخير يضمر له، وفي بداية الطريق، أسقطه من الزورق، ليعود سباحة نحو الشواطئ التركية. أمسكتْ به الجندرمة هناك، وأودعتْه السجن، ثمّ أُلقيَ على الحدود العراقية، ليقع بيد الاستخبارات. نام في واحد من سجونها المظلمة لعامٍ ونصف العام، ذاق فيها ما ذاق. فكان أسوأ ما ذاق هو أن يُلاط به إمعاناً في إذلاله.

كان مطأطئاً يروي كيف أمر المحقّق الحرّاس بتعريته، واللواط به، وكيف أنّ الأمر قد تكرّر عشرات المرّات حتّى بات لا يقاوم حين يُؤمَر برَفْع عجيرته. كان حين يُؤتىَ به من الزنزانة إلى غرفة التحقيق معصوبَ العينَيْن، يقترب منه ذلك المحقّق، ليهمس في أذنه: "اعترفْ، لا أشُقّك." ولأنّه لا ذنب لديه ليعترف به، كانت النتيجة أمسيّات عذاب، أبطالها حرّاس ساقطون، يتسلّون به، ثمّ يضربونه، ويبصقون بوجهه وهم يهتفون: "خائن .. خائن .. خائن ..".

"خنتُ مَنْ أنا؟!" يتساءل نبيل بانكسار بعد كل فصل من فصول حكايته، ممّا أثار مشاعر المترجم الذي توقّف عن مواصلة الترجمة، وشرع بالبكاء، فأمر المحقّق حينذاك باستراحة قصيرة، اصطحبه المترجم فيها إلى البالكون، وقدّم له سيجارةً، وقدح قهوة، وطمّنه بأنّ النتيجة ستكون في صالحه، وسيحصل على اللجوء في ألمانيا.

"كيف وصلتَ ألمانيا، إذاً؟" وجّه المحقّق سؤاله بعد استئناف جلسة التحقيق، فكان جواب نبيل مختصَراً: "حصان القصب"! أعاد المترجم عليه السؤال: "كيف وصلتَ ألمانيا؟" فردّ بحزم: "قلتُ لكم: حصان القصب." حينئذٍ نقل المترجم الجواب حَرْفيّاً وهو يتبادل نظرات الاستغراب مع المحقّق، ثمّ طلبا منه أن يشرح ذلك، فاعتدل نبيل في جلسته، وقال:

"حين خرجتُ من السجن، عدتُ إلى القرية مُتخفّياً. اشتريتُ قصباً وحبالاً، واتخذتُ مكاناً سرّيّاً خلف الدار. رسمتُ على الورق حصاناً عالياً بجناحَيْن عظيمَيْن، ثمّ بدأتُ بالتنفيذ. وبعد ثلاثة أيام من العمل المتواصل، كان حصان القصب شاخصاً أمامي. نصبتُ في اليوم التالي أفخاخاً للغربان، فكان في حوزتي بعد ليلة واحدة ستّةٌ وستّون غراباً أسود. ذبحتهنّ، وصبغتُ بدمهنّ حصاني، ثمّ وضعتُ في فمه عَظْمَةَ هدهد موصولة بسيرٍ جلدي، ودسستُ في مؤخّرته قرن فلفل حاراً. اعتليتُه بعد ذلك ممسكاً باللجام، وهمستُ في أذنه، فطار."

مندهشاً كان المترجم وهو يستمع لتلك الرواية، بينما ينشغل المحقّق بتدوينها على الكي بورد. طلبا منه أن يسترسل، فأردف وهو يرفع يده مزهوّاً:

"نعم، نعم، لا داعي للدهشة، أيها المحقّق الجليل، فأنا ابن حضارة، تطير فيها الثيران، فما بالكَ بحصان رشيق؟! لقد حلّق بي حصان القصب هذا بعيداً حتّى رأيتُ العراق بحجم كَفّ! ورغم أنّ الأقدام قد وطأتْ جبهتي فوق أرضه مثل نملة، إلا أنني قد بكيتُ تلك الأرض، واعتصر قلبي ألماً حين أشحتُ بوجهي عنها. كفكفتُ دمعي إذ ذاك، وأدرتُ الدّفّة غرباً، فحلّق بي حصاني العظيم لخمسة أيام كاملات حتّى رأيتُ عَلَماً بثلاثة ألوان: أسود، أحمر، أصفر، فقلتُ له: انزل بنا، يا صاح، فإنّي قد سمعتُ

أبي ذات يوم يقول بأنّ في هذه الأرض امرأة قدّيسة، تشرب البيرة، وتتجشأ المروّة. فهبط بي حينئذٍ حصان القصب، واحترق."

أنهى المحقّقُ الجلسةَ، وأمر بتحويل الشابّ نبيل فوزي إلى مستشفى الأمراض النفسيّة. سينام هناك تحت رعاية ملائكة رحيمة، قد يُنسينه ما حلّ به. وفي المصعد نحو الطابق السفلي، اقترب منه المترجم، وسأله عن الكلمة التي همس بها في أذن الحصان حينذاك، فقال نبيل: "طيرْ، لا أشُقّك."

حفلة السَّحْل الصاخبة

في عام ١٩٥٨م، وفي حفلة السَّحْل البغدادية آنذاك، كان أبي واحداً من المغدورين. لم يكن وصياً على العرش قطعاً، ولا نسيباً للملك، فلو كان كذلك، لعلمتُم. كل ما في الأمر أنّه كان سائس خيل، وحين هجم الناس على القصر، وقتلوا كل مَنْ فيه، كان أبي من بينهم. كان راكباً على واحد من الجياد العربية الأصيلة التي اقتناها الملك الشابّ من حُرّ ماله، فظنّه المهاجمون فارساً، فقتلوه. المسكين، ملؤوا صدره بالرصاص، ثمّ قيّدوه بحبل غليظ، وسحلوه في شوارع بغداد، ليرموه أخيراً في نهر دجلة. حواديت الموت تحفظها دجلة مثل حوانيتي قديم.

في الحقيقة، ولمزيد من الصدق، أنا لم أكن مَدعواً لحفلة السَّحْل تلك، حيث لم أزل يومها عجينة، تسبح في رحم أمّي، لكنّ أمّي هي مَنْ أخبرتْني الحكاية لاحقاً. قالتْ بأنّ عشرين رصاصة قد اخترقتْ صدر أبي قبل أن يُسحَل، ويُرمى في نهر دجلة، وحين سألتُها عن السّرّ وراء السَّحْل، قالتْ بأنّ غليل العراقيين لا يشفيه غير السَّحْل!

"غليل العراقيين لا يشفيه غير السَّحْل." حكمة بليغة أطلقتْها أمّي يومذاك، ولم تدرِ بأنّ رأسي الصغير سيتلقّفها، ويجعل منها مبرّراً شرعياً لكل ما يلي. فبعد سقوطي المتتالي في المدرسة، وفشلي الذريع في أن أكون ابناً باراً، أسّستُ فرقة إعدامات صغيرة. كنتُ الآمر والناهي فيها،

وكانت مهمّتها قَتْل القطط، وسَحْلها في الطُّرُقات. كنّا ننصب الفخاخ على طريق المسلخ، ونقضي ثلث الليل بانتظار هرٍّ سمين، يدخل المصيدة. اصطدنا الكثير، وسَحَلْنا الكثير، وكنّا بعد كل حفلة سَحْل صاخبة، نشعر بارتياح كبير. شرحتُ لرفاقي المبدأ سَلَفاً، وبثثتُ فيهم الحافز النفسيّ، فصدّقوا، وأقسموا أيماناً مُغلّظة بأنّ السَّحْل يشفي غليلهم.

- كم هي حكيمة أمّكَ، يا هشام! قال لي أحد الفتيان مُتملّقاً.

- اخرسْ، رددتُ، فطأطأ، وأمسك عن الكلام.

كبرنا، وطرقت الحرب أعمارنا، فتفرّقتْ بنا السُّبُل، وأمستْ قطط بغداد في مأمن من حبالنا. لكنّ الحرب تلك كانتْ سَخيّة معي، فقد أمسى السَّحْل سَحْلاً هناك. كنتُ واحداً من بين فوج للمهمّات الخاصّة، نذبح، ونسلخ، ونَسْحَل متى ما شئنا. رشّحني آمر الحظيرة حين شاهدني أملص رقبة حمامة تائهة، فقد كنّا ثمانية جنود مشاة، نحتمي في موضع ضيّق مسقوف بجذوع النخيل والصفيح، وفي ساعة ظهيرة قائظة، أطللتُ برأسي خارج الموضع. كنتُ أروم التّزوّد بالأوكسجين بعدما خنقتْني رائحة البساطيل تحت الأرض، فرأيتُ حمامة بلهاء تقف فوق السقف. كمنتُ لها إذ ذاك، وأمسكتُ بها. فصلتُ الرأس عن الجسد أولاً، ثمّ نتفتُ الريش، وشققتُ البطن. رميتُ الأحشاء لكلب سائب، ينتظر لعق جثثنا، ثمّ أوقدتُ ناراً في خشبة ملقاة، ودسستُ الحمامة فيها. جعلتُ منها وجبة غداء لثمانية جنود، يرتدون بِدَل المشاة الرديئة، فاتّصل آمر الحظيرة، الرقيب ستّار، بمقرّ السَّرِيَّة، وأخبرهم بالحكاية. صادق آمر السَّرِيَّة بعد أن وجدني مناسباً للمهمّة، وتمّ نقلي إلى فوج المهمّات الخاصة.

كان الأمر سهلاً بالنسبة لي، فقد اقتصرتْ دورة المهمّات الخاصّة يومذاك على الألعاب القتالية، وسَلْخ القطط، ومضغ الأفاعي، والنوم في الخراء. تفوّقتُ على أقراني بعد أن التهمتُ ستّين فأراً في يوم واحد، وسلختُ عشرين هرّاً، وشربتُ رطل بول كامل. في الحرب، ليس عليكَ أن تكون إنساناً. شعرتُ وأنا أمارس مَضْغَ الأرانب والقطط الأليفة بأنّ أنيابي قد استطالتْ، وأنّ ذيلاً بدأ ينبتُ فوق مؤخّرتي. لقد أصبحتُ جاهزاً في وقت قياسي، وعدتُ إلى الجبهة مرتدياً برّة المغاوير المرقّطة. قتلتُ في الجبهة المئات من الأعداء، وشققتُ بطون المئات من الجثث. كنتُ أتسلّى بإخراج أحشائهم، وشيّها على الحطب، لكن سعادتي لم تكن لتكتمل دون حفلات السَّحْل الصاخبة. جثّة بائسة وحبل سميك، هذا كل ما تحتاجه للشعور بالنشوة وشفاء الغليل، فغليل العراقيين لا يُشفَى إلا بالسَّحْل، بحسب أمّي.

كانتْ أمّي تنتظرني خلف باب الدار كل يوم أملاً بعودتي، لكنّي لم أعد. كيف للمرء أن يترك حفلات السَّحْل تفوته؟! كنتُ أبيع إجازتي الدورية على الجنود، كي أبقى على الساتر بانتظار جثّة، أشعل فيها النار، ثمّ أسحلها مثل خشبة مُتفحّمة. ثمّ إنّ النوم على الساتر ألذّ من النوم في فراش وفير، هذا ما لا يعرفه إلا المستذئبون أمثالي. أنا ذئبٌ إنسيّ، يا سادة، يطول عمري كلّما طالت الحرب، لكنّ ابن حرامٍ ما قرّر أن يُوقِفَها، فعدتُ من الجبهة، وتمّ تسريحي من فوج المهمّات الخاصّة. عدتُ وفي جعبتي عظمة ساق، كنتُ قد انتشلتُها من جثّة جندي بائس. احتفظتُ بها للتسلية. كان أهل الحيّ حين وصلتُ نائمين، والطُّرقات خالية. اقتربتُ من المسلخ العتيق، علّني أشعر بالزهو قليلاً، فمسلخ الأضاحي الذي يشرف عليه يونس القصّاب كان بمثابة جامعة هارفارد بالنسبة لي، فيه تعلّمتُ السَّحْل، وفيه تخرّجتُ. "ههنا كنتُ أُجهز على القطط، وأسلخ جلدها."

قلتُ في سرّي متبختراً، فقفز أمامي هرّ أسود مثل ملاكم شُتمتْ أمُّه. كان هرّاً عظيم الرأس بمنخرَيْن ينفثان الدخان، وذيلٍ قائم. اعترض طريقي، وبدأ يزأر مثل ثور برّيّ.

- اخلعْ، صرخ الهرّ.

- ماذا أخلع؟ قلتُ بصوت مرتجف.

- اخلعْ ثيابكَ، يا غبيّ.

كان حاسماً، لكنْ، على مَن؟! أخرجتُ له عظمة الساق من حقيبة الظهر، ولوّحتُ بها في الهواء. أخبرتُه بأنها عظمة ساق لجندي بليد، يزن سبعين رطلاً، كنتُ قد جندلتُه في أرض الحرام، وشققتُ بطنه. كنتُ أريد إخافته، لكنّه لم يخفْ، بل علا زئيره، وزاد نفث الدخان من منخرَيْه! اقترب منّي خطوتَيْن، ثمّ طار في الهواء، وهبط بصفعة قوية على فمي، أسقطتْني أرضاً. عاد إلى الخلف، وأطلق صفيراً عالياً. كانتْ تلك المرّة الأولى التي أرى فيها هرّاً، يضع يده في فمه، ويصفّر مثل مربيّ حمام محترف. تقافزت القطط من خلف المسلخ. وقفوا خلفه متأهّبين مثل فوج المهمّات الخاصّة.

- مييياووو، هتف الهرّ العظيم، وتعني بلغة القطط: أنزعوه.

تقدّمتْ نحوي قطّتان ساخطتان. اعتلتْ إحداهما صدري، وانشغلت الثانية بخَلْع سروالي، فأمسيتُ عارياً، أضع يدي على ذكَري حياءً من القطط. اقتربتْ قطّة، التهمتْ إصبع قَدَمي، ومضتْ. هجمتْ أخرى سوداء، تشبه كيس فحم، جدعتْ أنفي، ومضتْ. اقترب هرّ ساقط، وبدأ يلعق بما تحت سُرّتي.

- هاي شنو سرسري؟! سألتُه.

- أششششش، أخرَسَني، ثمّ قضمهنّ، ومضى إلى حال سبيله. هرٌّ آخر فقأ عيني. رابعٌ قطع لساني. خامسٌ مضغ أذني. سادسٌ شقّ بطني. سابعٌ لاك كبدي. اقترب الهرّ العظيم أخيراً، بال على جثّتي، ثمّ أحضر حبلاً سميكاً، ربط به ساقي، وأعلن عن بدء حفلة السَّحْل الصاخبة.

هُرعتْ قطط المدينة كلها حينذاك، وتجمّعتْ حول جثّتي المسحولة مثل عصفور بائس. صفّقتْ، وهتفتْ، وزغردتْ، ثمّ بدأتْ برَجْمي وضربي بالعصيّ والسكاكين. وصلتُ آخر المطاف عند المنصّة مثل خرقة ممزّقة. عُلّقتُ بحبل سميك هناك، وبدأ سيّد القطط بإلقاء بيان النصر، ثمّ أمر، بعدما انتهى، بإنزال جثّتي، وإلقائها في نهر دجلة. أخبر أحد الهررة المستطرقين أمّي بذلك، فردّتْ بيقين اليائسات: "غليل العراقيين لا يشفيه غير السَّحْل."

المدينة الخالية

شعور غريب يعتمل في صدره. كان يجلس أمام الطاولة في المقهى، ويراقب الطريق من خلف الزجاج. كان الثلج يندف بسخاء فوق تلك الطريق الخالية من المارّة. الطريق والمقهى والمدينة كلها خالية. أغمض عينَيْه، ليرى نفسه واقفاً أمام بائعة البيض. كانتْ تجلس على الأرض، وتضع أمامها سلّة بيض كبيرة. يُباع البيض يومذاك بالمفرد. ابتاع خمس بيضات، وعاد. فتح عينَيْه، فرأى النادل مُنحنياً، يضع أمامه فنجان قهوة. ارتشف رشفة واحدة، وأغمض عينَيْه من جديد. كانت الأمّ منهمكة في إخراج الخبز من تنّور الطين. أخرجتْ واحدة، وناولتْه إياها. حملها بطرف قميصه، وأسرع نحو المطبخ. فرش الخبزة على الطاولة. منحتْه الأخت الكبيرة بيضة مسلوقة. أضاف عليها رشّة ملح، ووضعها في بطن الخبزة، ثمّ بدأ يقضم بلذّة. فتح عينَيْه، ما تزال المقهى فارغة، وما يزال الثلج يندف في الخارج! لا رجال في هذه المدينة، ولا نساء. مدينة ثلج وأشباح لا غير. ارتشف رشفة أخرى من فنجان القهوة المنتصب أمامه، وأغمض عينَيْه، فسمع طَرْقاً على الباب. كان أحدهم يحمل دعوة لحضور حفل زفاف.

- تفضّل.

- شكراً.

ناول الدعوة لأبيه الجالس على أريكة الجريد المنصوبة تحت ظلّ شجرة

السدر. وفي المساء، كان يركب على متن إحدى السيّارات المكشوفة مع عشرين صبياً، يهتفون باسم العريس: "عرس علّوش هيَل وطَشّ بالولالية، عرس علوش .." علّوش كان اسم الدلع للعريس علاء. موكب طويل يطوف شوارع المدينة. الزغاريد تختلط بصوت المنبّهات، والسماء تمطر التشوكليت. فقرٌ وفرح، معادلة لا بأس بها! تناول العشاء مع الصبية، وظلّ يرقص حتّى وقت متأخر من الليل. وفي الغد، كان واقفاً يحكّم مباراة لكرة القدم، أقامها فتيان المحلّة في الطريق. كانوا حُفاة يطاردون كرةً رديئة الصنع، لكنّ السعادة التي كانتْ تغمر قلوبهم يومذاك جعلتْها تضاهي الكرة التي داعبها زين الدين زيدان في نهائيات كأس العالم ١٩٩٨ في باريس.

ناوله النادل مظروفاً: "تفضّلْ، يا سيّدي، هذا لكَ." كان مظروفاً أنيقاً. أمسك به. قلّبه على الوجهَيْن. ليس عليه اسم المُرسِل، ولا المُرسَل إليه. فضّه متلهّفاً لمعرفة ما في جوفه. كانتْ دعوة لحضور حفل. وضعها في جيب سترته، وغادر المقهى.

وفي الليل، كانتْ سماء المدينة مشتعلة بالألعاب النارية. الطُّرُقات مزدحمة بالمحتفلين، والوجوه تكسوها البهجة. كان متأنّقاً، يمسك بالدعوة بيده. سلّمها عند الباب، ودخل. جلس لدى طاولة كبيرة، يتحلّق حولها عشرات المَدعوّين. شرب كأس نبيذ، وقام ليراقص فتاةً جميلة. لم تسع الدنيا فرحته. كان فرِحاً بالصحبة وكثرة الناس. غنّى ورقص كثيراً، لكنه نسي أن يفتح عينَيْه. فعل ذلك، فوجد الطريق ما تزال خالية والثلجَ مستمراً في الهطول. نادى على النادل، دفع الفاتورة، وغادر المقهى.

فوق أريكة عرجاء

في يومٍ ما، اكتشفتُ بأنّ لي قدرة على الطيران. لم يكن لي جناحان حينذاك، لكنني كنتُ قادراً على التحليق في الهواء. لقد أمسك بي قبل الظهيرة شرطيّ مُكلّف بتأديب الصبيان البُدُن على قارعة الطريقة. كنتُ بديناً، وكانتْ شرطة مكافحة السمنة تنشر أفرادها في الطُّرُقات مثل الجراد. حاولتُ الإفلات دون جدوى! كان اللعين يقبض على يدي، ويفتلُها إلى الخلف. توسّلتُه أن يدعني أذهب، وأقسمتُ له بروح أبي بأنّي سوف لن أخرج من البيت ثانيةً حتّى أفقد عشرين رطلاً، فأفرح عنّي بعد أن شتم أبي. كنتُ حانقاً عليه بسبب شتمه المتكرّر لأبي، لكنّي احتفظتُ بحنقي في صدري، كي لا تطال عصاه مؤخّرتي.

عدتُ إلى الدار. ملأتُ بطني بطبق رزّ، يعلوه نصف ديك مَقليّ مع لوز وبازلاء وكشمش، ثمّ حلّيتُ فمي بقطعة كنافة عظيمة، وختمتُ بقدح شاي أسود. شغّلتُ مبرّدة الهواء بعد ذلك، واستلقيتُ على الأريكة العرجاء في باحة المنزل. كنّا نُلقّبها بالعرجاء، لأنها بثلاث أرجل وطابوقة، فقد استعاضتْ أمّي عن الرِّجْل الرابعة بطابوقة، أوقفتْها بشكل عمودي بعد أن سئمتْ من التردّد على النّجّار. كانت الرِّجْل تنكسر كثيراً، بسبب نومي المتكرّر على الأريكة، لكنّي سمعتُ طَرْقاً عنيفاً على الباب، وصراخاً في الخارج، ففزعتُ لأرى ما يحدث. كان ذلك الشرطيّ يشتم أمّي، لأنه عرف، من خلال الريش المُلقى في كيس القمامة، بأنها قد طبختْ لي

ديكاً سميناً، وحالما مددتُ رأسي من الباب، حاول الإمساك بي. لكنّي أفلتُّ منه، وبحركة بهلوانية سريعة، خطفتُ العصا من يده، وهربتُ. كنتُ أركض، رغم بدانتي، مثل غزال برّيّ أمام فهد جائع، بينما كان الشرطيّ يُطلق النار خلفي، ويهتف: حيوان .. حيوان .. انتظرْ.

ليستْ شرطة مكافحة السمنة فحسب، بل أهل المدينة جميعهم، كانوا ينالون من إنسانيّتي بشكل مفرط، بسبب السمنة حتّى ظننتُ لوهلة، ولكثرة ما ينادونني بالحيوان، بأنني غدوتُ كذلك.

لم أكترث لصراخ الشرطيّ، وعدوتُ بأقصى سرعتي وسط سيل الرصاص الذي كان ينهمر من الخلف. إحدى الرصاصات مرّتْ قرب أذني، وسلّمتْ عليها، لكنّها لم تُصبها. لا أدري كيف أفلتتْ! ربمّا هي واحدة من ضربات الحظّ النادرة. المهمّ أنّي ركضتُ، وزاوغتُ الرصاصَ يميناً وشمالاً، ثمّ قفزتُ. كانتْ قفزة هائلة، لم أصدّقها، شعرتُ معها بأنني أطير. لا لا، لقد كنتُ أطير فعلاً. لقد حلّقتُ عالياً بلا جناحَيْن حتّى غدوتُ خارج دائرة النيران، فتوقّف سيل الرصاص أخيراً. حينذاك مرّ غراب مستطرق، سألني عمّا انتهبتُه من ذلك الشرطي، فقلتُ:

- لا شأن لكَ، أنتَ، ابتعد.

فردّ الغراب حانقاً:

- حسناً، سأريكَ، أيها البدين.

لم أكترث لتهديد الغراب كثيراً، فهو طير حقير، طالما رأيتُه يسوق صغار السمك المشرور على الحبل فوق السطح. كانتْ أمّي تشرّ السمك هناك حتّى يجفّ، ويمسي كالخشب، ثمّ تسلقه بالماء والملح، وتسقينا منه في نهارات الشتاء الباردة.

حلّقتُ عالياً، والعصا لم تزلْ بيدي. كنتُ أداعب بها الهواء، فينفرج بسخاء. ظننتُه للوهلة الأولى سعيداً، لكنّ نسراً محلّقاً مرّ قربي، ألقى التحية، وقال: "رفقاً بالهواء، يا ساطع." لا أدري من أين عرف اسمي، لكنّ تحذيره جعلني ألتفتُ إلى كرة النار التي بدأتْ تتشكّل خلفي. لقد حرقتُ الهواء بعصاي تلك، فتوقّفتُ حينئذ، رفعتُ العصا، ولوّحتُ بها لكرة النار مثل قائد الأوكسترا، أشرتُ لها نحو الأسفل، فانطلقتْ مثل جرم سماوي لاهب، ثمّ سقطتْ على رأس ذلك الشرطي، فحوّلته إلى جذع مُتفحّم. داعبتُ الهواء من جديد، فتشكّلتْ كرة نار أخرى. رقّصتُها حتّى كبرتْ، ثمّ لوّحتُ لها نحو سوق المدينة، فهبطتْ عليه مثل نيزك، وأشعلتُه بمَنْ فيه. كنتُ فرِحاً بحمم النار التي أقذفها فوق رؤوس مَنْ سلبوا إنسانيّتي، والتي جعلتْهم يُهرعون كالفئران يميناً وشمالاً. سمعتُ أحدهم ينادي: "إنه غضب الرّبّ .. إنه غضب الرّبّ." وآخر: "الويل لنا .. لقد حانت الساعة." ونسوةً تتلاقف أذيالهنّ النيران يندبنَ: "واهٍ واه .. لقد قُضي علينا." بينما كنتُ واقفاً في الهواء، أضحك بأعلى صوتي، وأهتف: "حيوانات .." حينذاك مرّ الغراب الحقير مسرعاً، خطف العصا من يدي، فسقطتُ من الأريكة العرجاء، واستيقظتُ.

خارطة الملك

مُربيّ الدلافينَ ذو السحنة السمراء، كان منتشياً وهو يردّ التحية على جلالة الملك الرحيم. تحايا الملوك نياشين، يضيفها الخَدَم إلى أرصدتهم الخاوية. كانتْ صباحاته تُفتتَح بهرّة رأس كريمة، يتبعها سؤال عن حال الدلافين السعيدة. "اطمئنّ، مولانا، إنها بخير." يجيب حينئذ، فيبادله الملك بتلويحة رضىً قبل أن يجلس لتناول وجبة الإفطار. كان الأخير معتاداً على الإفطار في حديقة القصر أمام البحيرة، ولكرمه كان يرمي للدلافين بعض قطع الجبن الأسترالية الفاخرة، فيقفزنَ في الهواء، ليتلقّفنَها، ويَشْكُرْنَه برقصة خاطفة. أما مُربيّ الدلافين الأسمر، فكان يجلس على دكّة البحيرة، ويلوّح لهنّ بيده، من أجل ضبط إيقاعهنّ، وعندما ينتهي الملك من إفطاره، يرافقه في نزهة قصيرة حول القصر. صباح مفعم بالحياة، يقضيه بين الغزلان والبطّ وكلاب الحراسة، برفقة ملك رحيم، يصافح الخَدَم، ويمسح بحنوٍ على رؤوس القطط، لكنّ علامات الحزن لم تفارق عينَيْه منذ الأزل. لا أحد يعلم السّرّ وراء فقدانه للبهجة، ولا أحد يجرؤ على سؤاله، حتّى جاء ذلك اليوم الذي تجرّأ فيه مُربيّ الدلافين، على غير عادته:

- هل تسمح لي بالسؤال، مولانا؟

- تفضّلْ، يا بُنَيّ، هاتِ، ما عندكَ.

- ما بكَ، مولانا؟ لماذا أراكَ حزيناً على الدوام؟!

- آه، يا بُنَيّ..

- احكِ، مولانا، ما بكَ؟!

- ماذا أحكي لكَ، يا بُنَيّ، لأحكي!

شعر مُربيّ الدلافين بأنّ الملك يوشك على الكلام، فأردف:

- احكِ، مولانا، أرجوكَ، فَضْفِضْ.

تنحنح الملك عندئذٍ، وقال مشيراً بيده نحو الباب المنقوش بماء الذهب: "تعال معي، كي ترى بعينكَ، إذن." ثمّ اصطحبه إلى داخل القصر. كانتْ تلك المرّة الأولى التي تطأ فيها سجّادَ القصر قَدَمَاه، فهو مُربيّ دلافين، عمله عند البحيرة فحسب.

على كل حال، دخل إلى القصر. كان الملك يسير أمامه بوقار وهيبة، وكان، بلا جدوى، يحاول أن يضبط إيقاع خطواته معه، فمسير الملوك مثل أختامهم، لا يمكن تقليدها. تجاوزا حينذاك صالة الضيوف، وانعطفا نحو دهليز طويل، ينتهي بباب مؤصَد. توقّفا هنيئة. صفّق الملك، فانفتح الباب على مغارة مظلمة. أخرج علبة كبريت من جيبه، وأضاء شمعة مثبّتة في خزفة. حملها بيده، وقال: "اتبعني." فتبعه بصمت وترقّب. كان المكان غريباً موحشاً بالنسبة له؛ مغارة مظلمة تتّصل بممرّ ضيّق، ينتهي بسلّم خشبي. هبطا إلى الطابق السفلي. كل شيء كان مظلماً. صفّق الملك من جديد، فانفتح بابٌ خشبيّ قديم مُصدِراً صوتاً، يدلّ على قِدَم المكان، ووحشته.

- اتبعني.

- حاضر، مولانا.

أوقدَ الملك مشعلاً زيتياً متّصلاً بمشاعل كثيرة. تسرّب الضياء بين المشاعل، فاستحالت العتمة نوراً مبهراً، كشف عن مغارة شاسعة مَكسوّة بالآجرّ الملوّن والمرصّع بالخزف والفضّة والمرايا. تتحلّق في السقف أيقونات ملائكية مرسومة بحِرَفِيّة متناهية، وتتدلّى منه ثُرَيَّا عظيمة متلألئة الأنوار. في الزوايا تماثيل مُن البرونز لطيور وحيوانات أسطورية، وفي النهاية تمثال للملك الرحيم جالساً على عرش رهيب. كانتْ تتوسّط المغارةَ منضدةُ صاجّ مستديرة، يبلغ قطرها ستّة أمتار تقريباً، مرسوم عليها خارطة ملوّنة للعالم، لكن المُلفتَ في الأمر أنّ البلدان قد استبدلتْ بتضاريسها صور جماعات بشرية، تمتاز من بعضها البعض بالألوان! ممّا جعل الفضول يهرش رأس مُربيّ الدلافين، ويدعوه للتساؤل عن معنى ذلك، فيردّ الملك بأنها صور الشعوب.

- الشعوب؟! هتف مستفهماً.

- نعم، الشعوب، ردّ الملك، ثمّ أمسك بعصا التأشير، وبدأ يشرح:

"انظر، يا بُنَي؛ هذه هي خارطة الشعوب، فلا قيمة للبلدان إلا بشعوبها، ستتعرّف عليها من خلال الألوان التي صبغنا بها وجه كل شعب، فهنا، مثلاً، شعب فقير، لا يجد الخبز، منحناه اللون الأصفر، إنه شعب أنغولا المسكين. وهنا شعب يعاني من الملاريا، منحناه الأحمر، إنه الشعب النيجيري. شعب مسكين أيضاً. وهنا شعب يموت، منحناه البياض، هو الشعب الهندي المُبتلى. وهنا شعب الفلبين الجائع. وهنا شعب الصومال الضائع. وهنا وهنا وهنا.. كل هذه الشعوب المسكينة برقبتي، أنا الراعي لها، فأنّى تأتيني البهجة، إذن، يا بُنَي؟! وكيف لي ألّا أكون حزيناً؟!"

حينئذٍ لم يقدر حارس الدلافين على احتمال الشكوى، فشرع بالبكاء

مثل أمّ ثكلى. كان يبكي بحرقة، ممّا جعل الملك ينهي حديثه، ويربّت على كتفه. ناوله بعد ذلك قَدَحَ ماء من يده الكريمة، علّه يستريح، لكنّه شرب الماء، وعاد للبكاء ثانية. طلب منه أن يهدأ، ويعدّ الأمر منتهياً، ولم يزل يبكي. دسّ في يده عملة ذهبية، وضعها في جيبه، ولم يزل يبكي. لم يحتمل الملك طويلاً، فقال:

- تاليها ويّاك، أبو الدلافين؟! قُل ما بك وإلا طردتُك من العمل.

كفكف مُربيّ الدلافين دموعه حينذاك، وتناول من الملك عصا التأشير، وقال مستفهماً:

- مولانا، وهذا الشعب؟!

- أيّ شعب؟

- هذا الشعب الملوّن بالسواد، أمامكَ، على الرقعة المحصورة بين بلاد فارس والشام عرضاً، والأناضول وشبه الجزيرة طولاً.

- ما به؟

- ما كسر خاطركْ، مولانا؟!

فقال الملك وهو يستعيد العصا:

- لا.. لم يكسر خاطري.

- ليش مولانا؟!

- لأنّ قلبي لا ينكسر على شعوبٍ، تصنع طُغاتها بأيديها!

هَمَّ مُربيّ الدلافين بالاعتراض إذ ذاك، لكن الملك الرحيم استعاد منه العصا، وقال ملوّحاً:

- أشششش، لا تجادلْ، واعتبرْ نفسكَ مطروداً من العمل .. آوت.

- ليش، مولانا؟! تساءل باستغراب.

- لأنّكَ طويل اللسان، ردّ الملك.

حينئذٍ تمتم الشابّ بصوت خفيض وهو يغادر المغارة المهيبة:

- فاك يو، مولانا.

- ماذا تقول، يا ولد؟

- أقول شكراً لله، مولانا.

حامل الحقيبة

ألقي بالصحيفة جانباً، ثمّ أمسك برأسه. كان فيها من الأخبار السوداء ما يكفي لإحباط فوج من حيوانات الباندا البليدة. خلع ثيابه، وألقى بهنّ على الأريكة في الصالة، ثمّ دخل إلى الحمّام، ليقف تحت الدوش البارد. كان رأسه ساخناً، فعلامات الاستفهام حين تزدحم تجعل الرأس يغلي مثل ماء في قدر. لماذا يَقتلُ الإنسانُ، يا ترى، الإنسانَ؟! من أين جاء بهذه القسوة على أبناء جنسه؟! كيف ينقلب، برمشة عين، إلى ذئب جائع؟! كيف يُمسي، هكذا، وحشاً قاتلاً؟! هل أصل الإنسان عقربٌ، تحوّل، حين كبر، إلى تمساح، ثمّ استحال إلى ضبع في النهاية؟! أم أنّه خُلق في الأصل من تراب ممزوج بسُمّ أفعى خبيثة، ودم جاموس برّيّ قاتل؟! لماذا القتل لا غير؟! لماذا، يا أولاد القحبة؟! كان يوسف يصرخ تحت الماء وقتذاك، وحين شعر باسترخاء طفيف، لفّ جسده بمنشفة كبيرة بعد أن أغلق الدوش، وخرج. صنع فنجان قهوة مرّة، وأشعل سيجارة، ثمّ بدأ ينفث الدخان على هيئة دوائر. كان يسحب نَفَساً طويلاً، ويحبسه داخل رئتَيْه، ثمّ يُثني لسانه، وينفث بدفعات متتالية.

منظر دوائر الدخان المتماهية في الهواء كان يُريح أعصابه، ويمنحه زيادة في الاسترخاء، لكن شبح الموت لا يريد أن يفارق خياله، فدوائر الدخان تتحوّل لديه إلى أشباح موتى، يعرجون نحو السماء وهم يصرخون، ممّا

اضطرّه إلى إطفاء السيجارة، ومغادرة المكان. دخل إلى غرفة نومه، غيّر ثيابه، وحمل حقيبة سفره، وخرج. استقلّ الباص الذاهب صوب مركز المدينة. في الموقف اللاحق، توقّف الباص، ركبتْ سيّدة ثلاثينية جميلة. ألقتْ عليه التحية من بعيد، ثمّ جلستْ بجانبه.

- كيف حالكَ، يوسف؟

أطال النظر في وجهها قبل أن يردّ التحيّة. لم تُسعفه الذاكرة في التعرّف إليها.

ربّتتْ على كتفه، وأردفتْ:

- يبدو أنكَ على رحيل!

- نعم، أنوي الرحيل عن هذا البلد اللعين.

اعتاد يوسف أن تكون بصحبته حقيبة سفر، يجرّها خلفه أينما ذهب. كان يستقلّ الباص والميترو، ويطوف المدينة طولاً وعرضاً برفقتها، لكنه يعود في آخر النهار إلى شقّته الضّيّقة، لينخمد. منذ عشر سنوات وهو على هذا الحال.

- أين وجهتكَ، هذه المرّة؟ سألت المرأة بلطف.

- إلى سورية.

- سورية؟!

- نعم، إلى سورية، أو أفغانستان، أو العراق، أو جهنّم، ليس مهماً، المهم أنيّ سأرحل عن هذا البلد.

- أوف، ألهذا الحدّ لا تُطيقنا؟!

- وأكثر.

- يا ترى، هل لي أن أعرف السبب؟!

اعتدل يوسف في جلسته، وبدأ يشرح بسخاء على غير عادته:

أنا، يا سيّدتي، لا أطيق بلادكم، لأنها أرض صامتة، لا موت فيها. منذ عشرين عاماً، مدة إقامتي هنا، لم أرَ جثّةً ملقاة على الطريق، ولا رأساً معلّقاً على شجرة، ولا حتّى يداً مقطوعةً في مزبلة! أنا، أيتها السّيّدة الباردة، أبحث عن أرض، يقتلني فيها أخي، ثمّ يمزّق جسدي، ويلوك أحشائي مثل قطّة جائعة. أبحث عن وطن، يقوده عاهرون، يرتدون جلباب الدِّين والقداسة. أفتّش عن حاكم يضحك على ذقني، ويجثم على صدري بمحض إرادتي. هل تعلمين، يا عزيزتي، بأنّي ومنذ عشرين عاماً لم أصفّق، ولم أهتف، حتّى كدتُ أنسى شكل كفَّيَّ؟!

- هل اشتقتَ للهتاف؟

- نعم، نعم، اشتقتُ كثيراً لدكتاتور يرتدي برّةً عسكرية، وتتناسل النجوم على كتفَيْه، لكي أهتف له: "بالروح، بالدم، نفديك، يا رئيس." أو لصّ يرتدي جلباباً فضفاضاً وعمامة، فأهتف له: "علي وياك علي." لا يهمّ ما يرتدي، أنا اشتقتُ للهتاف، وكفى، وأنوي الرحيل إلى وطن، تُعفِّر أزقّتَه رائحةُ الموت، وينتشر على أرصفته الجياع والمشرّدون. وطنكم، أيتها السّيّدة الباهتة نظاميٌّ مملّ، يمشي مثل ساعة سويسرية أصيلة، بينما أبحث عن وطن عشوائي كحياة أهله. أريد وطناً يغلّفه هواء فاسد، هل تفهمين ذلك؟ هواؤكم نقيّ، لا يناسب رئتَيّ المتسخّمَتَيْن بدخان الحروب.

توقّف الباص عند ذاك، وترجّلت المرأة. لكنها قبل أن تنزل، دسّتْ في يده بطاقة صغيرة، وهمستْ في أذنه:

- هذا كارتي الشخصي، يا يوسف.

- ماذا أفعل به، أيتها البلهاء؟! أنا راحل من هنا.

- ستجد فيه عنوان عيادتي الجديد، أرجو زيارتي هناك، لنعاود جلسات العلاج من جديد.

- بلهاء.

شاهد زُور

استيقظَ مبكراً على غير عادته. كانت الروزنامة تشير إلى يوم الأربعاء/ التاسع من شهر أبريل ٢٠٠٣. رفع كيس الملح الصغير من تحت الوسادة، إذ ما يزال يعمل بوصفة جدّته للخلاص من الجيثوم. قالتْ له ذات يوم: "لا تنسَ وضع كيس ملح تحت الوسادة قبل النوم.. الجيثوم يهرب من الملح."

شعور مُرهق أن تسمع مَن حولكَ، ولا تقدر على الكلام، فتبقى في الفراش ساكناً، تصارع تلك الجامعة الوَهْمية التي تُغلق على أطرافكَ، وتمنعكَ من الحركة. قالت الجدّة بأنّ هذه الحالة تُدعى الجيثوم، وفسّرتْها بأنّ الأفعال السّيّئة تتشكّل عند النوم على هيئة عفريت، يقبض على أجسادنا كنوع من أنواع العقوبة.

رمى كيس الملح في سلّة النفايات لانتهاء صلاحيّته التي تمتدّ لليلة واحدة فقط، سيبدله بآخر قبل النوم، ثمّ ولج الحمّام متثاقلاً. أفرغ مثانته، وتنحنح. شطف وجهه دون النَّظَر في المرآة، ولبس ثيابه، وخرج. وصل مبكراً إلى محل عمله. أخرج كرسياً، وجلس يراقب الطريق. كان مكتوباً على اللافتة فوق رأسه: "شاهد عدل".

وضع نادل المقهى أمامه قدحاً من الشاي الساخن. أخذ رشفة، وعاد يبحلق في وجوه المارّة. مرّتْ ساعات والحال هو الحال. شاي وترقّب. أعاد الكرسي إلى الداخل بعد أن يئس من الرزق، وهَمَّ بالإغلاق، لكنّ صوتاً

ناعماً طَرَقَ أذنه: "مرحبا." فالتفت؛ ليجد امرأة تتلفّع بعباءة، وتسدل على وجهها نقاباً أسود. ردّ التحية، فكشفت المرأة عن وجهها. كانتْ حسناء مترفة كالقشدة.

- تفضّلي .. أمُرْ؟ خدمة؟ قال.

- محتاجة شهادة، ردّتْ قبل أن تُبرز مظروفاً أسمر من تحت عباءتها.

تناول المظروف، وبدأ يقرأ على الواقف. كانتْ علامات الصدمة ترتسم شيئاً فشيئاً على جبينه. أما المرأة، فقد جلستْ على الأريكة كاشفةً عن ساقَيْها وهي تُشعل سيجارة كيلوباترا. كانتْ تنفث الدخان بطريقة لا يعوزها الإغراء، وتراقب قطرات العَرَق التي تزاحمتْ على جبهته.

أنهى القراءة، وأعاد المظروف للمرأة دون أن يفتح فمه. اكتفى بهزّ رأسه يميناً وشمالاً تعبيراً عن الرفض.

- ليش؟ سألتْه بعد أن أطفأت السيجارة في المنفضة أمامها.

- شوفي غيري، آني شاهد عَدْل مو شاهد زُور، ردّ بحزم.

ضحكت الحسناء ضحكة مجلجلة، وأخرجتْ من حقيبتها رزمة دولارات خضراء. وضعتْها على الطاولة، وقالت:

- هذه عشرة آلاف دولار تحت الحساب، وعشرة آلاف بعد الجلسة، شنو رأيك، يا أبو العدل؟

- يحيا العدل، أجاب وهو يدسّ الدولارات في جيبه، ويرسل قبلةً هوائية نحو ساقَيْها الكاشفَتَيْن.

وفي اليوم التالي، كان واقفاً على باب المحكمة بصحبة واحد من

مساعديه. نادى الشرطي برَقْم القضية، فدخلا القاعة للإدلاء بالشهادة. كانت المرأة حاضرةً بصحبة المحامي. وكان عليها من الوقار والحشمة ما لم يكن على الأمّ تريزا؛ عباءة طويلة، ونقاب بثقبَيْن للرؤيا مع مسبحة طويلة كانتْ تحصي حبّاتها بخشوع!

تقدّم محامي الدفاع للمرافعة بحماس أمام هيئة المحكمة. كان مقنعاً للجميع ما عدا الشاهد الذي قبض الثمن بالأمس. شهود الزُّور وحدهم يعرفون الحقيقة. توجّه إليه القاضي بالسؤال:

- هل تشهد أنّ التمثال الكبير تعود ملكيّته لهذه المرأة؟

- نعم، سيّدي، أشهد.

- هل تُقسم على ذلك؟

- نعم، أقسم بالله العلي العظيم بأنّ التمثال يعود لهذه المرأة.

أعاد السؤال ذاته على الشاهد الثاني، فكان الجواب مطابقاً. حينئذٍ حكم القاضي لصالح المومس المحتشمة، ورُفعت الجلسة. وفي المساء، كانتْ أعداد غفيرة من الرجال يتجمهرون تحت التمثال الكبير الذي اعتلتْه المومس المتلفّعة بملاءة الحشمة والتقوى. كانوا يهتفون لها، وهي تشجّ رأس التمثال، لتخرج منه وطاويط سوداء، تذرق على رؤوسهم، وكانت، كلّما ارتفعتْ هتافاتهم، أكثرتْ لهم من عدد الوطاويط المحرّرة. لقد استمرّ الحال حتّى امتلأتْ سماء المدينة بالوطاويط، فصرخ الشاهد حين رأى ذلك المنظر الفنطازيّ المخيف، لكنّه لم يستطع الاستيقاظ من الكابوس. لقد ركب على صدره جيثوم عظيم، لأنه نسي يومذاك أن يضع كيس الملح تحت الوسادة.

شِندي الحزين

قبل أعوام اشتريتُ تَيْساً، أسميتُه شِندي. عشنا أيام البرد القارس سويةً في مُدُن الشمال. اعتكفنا مثل ناسكَيْنِ في كوخ فوق الجبال مدة عام ونيّف قبل أن تسوء حالته النَّفْسيّة، ويضطرّني للهبوط به نحو المدينة. حملتُه إذ ذاك، ونزحنا جنوباً نحو العاصمة أوسلو. كانتْ نوبة اكتئاب حادّة حرمتْني صوته، فأمسى صائماً عن المعمعة، أما إذا أراد أن يقضي حاجته، فكان يهزّ ذيله المعقوف، ويسرح أمامي إلى الحديقة الورّانيّة للبيت.

فيما مضى، كنتُ أستيقظ على صوت شِندي، وأنام على صوته. كان يمازحني وأمازحه. يتقافز كلّما حكيتُ له نكتةً، وينطح الحائط طرباً، كلّما سمعني أدندن "يا حريمة". أما إذا كذبتُ عليه، وطالما فعلتُ ذلك، فإنه كان يُغمض عينَيْه، ويمطّ أذنَيْه، ويصيح مئتئتئتع. اللعين، كان يجعلها طويلةً تعبيراً عن اعتراضه على الكذب. صادقٌ شِندي، فأنّى له أن يرضى بالكذب؟! لكن حزنه الطويل هذا قلب حياته وحياتي، وصبغ أيامنا باللون الأسود. لا أدري ما الذي دهاه؟!

قلتُ له ذات صباح: "ما رأيكَ بنزهة حول المدينة؟" فأطرق على مضض موافقاً، فأبدلتُ ثيابي، وخرجنا. اصطحبتُه إلى ساحة مُسوَّرة للتّزلّج وسط المدينة. فالتّزلّج على الجليد، بحسب جارتي يوفري، بمثابة حبّة دواء لنوبات الاكتئاب التي تُصيب سكّان النرويج عادةً.

وصلنا الساحة التي كانتْ مكتظّة بالمتزلّجين. ألبستُه العدّة، ثمّ أمسكتُ به، وصرنا نتزلّج وسط الحلبة. رفعتُه من قرنَيْه الصغيرَيْن، ودرتُ به خمسين دورة كاملة حتّى دار رأسي، وسقطتُ، فأسقطتُه معي. ظننتُه سيشفى بعد الخمسين دورة تلك، لكنه لم يفعل، لم يُمَغْمِغْ، لم ينطحْ، لم يعطسْ، لم يعفطْ، ولم يُبدِ أيّ إشارة على انفراج الأزمة. لَمْلَمتُ العدّة حينئذٍ، وعدنا إلى البيت.

في الطريق، أوقفتْني سيّدة كبيرة، تتلفّع بشال صوفيّ أنيق. لم أنتبهْ إليها بادئ الأمر، لكنّي عرفتُ، حالما نطقتْ، بأنّها الملكة سونيا، حَرَم الملك هارالد الخامس، وأمّ وَلي العهد، الأمير هاكون ماغنوس. ألقت التحية، وقالتْ لي:

- وينك إنتَ، يا رجل؟

- في هذه الدنيا مع صديقي شِندي.

- كيف حال أهلكَ هناك؟

- بخير.

- لكنني سمعتُ غير ذلك.

- ماذا سمعتِ، جلالتكَ؟

- لقد سمعتُ بأنّ جيرانكم يُعلِّمون عليكم هذه الأيام؟ هل هذا صحيحٌ؟

لقد أثارني سؤال الملكة سونيا، وقلَّبَ مواجعي، فبادرتُ للنفي:

- كلا وحاشا، ولعنة الله على مَنْ أوصل لكِ هذه الأخبار الكاذبة. يخسأ مَنْ يُعلِّم علينا، وفينا عِرْق ينبض.

حينئذ نظرتُ إلى شِندي، فرأيتُه حائراً حائساً، يكاد يخرج من صمته، فقالت الملكة:

- حسناً، صفْ لي ما حدث، إذن؟ فقلتُ وبحزم:

- والله، يا أمّ هاكون، الحكايات كلها تلفيق في تلفيق، فنحن بخير، صدّقيني، وقَرِّي عيناً، كل ما هناك أنّ جاراً شرقيّاً مُتيّماً دقّ بابَنا، ولم نفتح له إلا بعدما اصطفّ في طابور مهذّب، ودفع ما على الغريب دَفْعه حين يعبر حدود دولة أخرى، وأنّ جاراً غربياً أقسم أيماناً مغلّظةً، لفرط حبّه لنا طبعاً، ألا يُفطَم من ثدي نفطنا حتّى ينشف، وأنّ جاراً شمالياً يعشقنا حدّ الجنون، قبَّل أقدامَنا، ودخل ليدفع الشرّ عنّا من عدوّ غاشم، لا ندري كيف جاء! ومن أين تسلّل إلى أرضنا! وأنّ جاراً جنوبياً لا ينام الليل دون أن يعدَّ الخراف التي أرسلها من أجل هدايتنا، وانتشالنا من مستنقع الزندقة الآسن .. هذا كل ما حدث، صدّقيني.

أنهيتُ حديثي، والرضى كان بادياً على وجه الملكة سونيا. لقد صدَّقتْني، أو كادتْ أن تفعل، لولا أنّ شِندي قد أفلت من يدي، وأغمض عينَيْه، ثمّ مطّ أذنَيْه، وصاح مئئئئئئئع، فضحكت الملكة، وأكملتْ طريقها بلا وداع. لقد أقلقتْني تلك الضحكة، وتراءى لي أنّ أمّ هاكون لم تصدِّق روايتي، لكنْ، بيني وبينكم، ليس الأمر مهماً بالنسبة لي، وعساها لا صدّقتْ. المهمّ عندي هو أنّ صديقي، التيس شِندي، قد تماثل للشفاء، وأضحى يمُعْمِعُ كما كان، مئئئئئئئع.

بِشارةُ غراب

في الطريق إلى المنزل، اعترضني غراب. وقف في الهواء يصفّق بجناحَيْه أمام وجهي. سألتُه عمّا يريد، فقال بأنّ هنالك بشارة في انتظاري. بشارة من غراب؟! يا ويلي! على كل حال شكرتُه، ومضيتُ.

كنتُ أحثّ الخطى، كي أصل، وعلامات الاستفهام تتناسل في رأسي. ما الذي ينتظرني في المنزل؟ لقد فقدتُ منذ عامَين عملي كمُحرّر ثقافي في الصحيفة، لسبب تافه، وما تزال المصائب تتناسل. قالتْ مديرة التحرير يومذاك بأنّها تشعر بالاختناق وقلّة الأوكسجين في الهواء، بسبب أنفي الكبير، فأقالتْني من وظيفتي بعد أن عجزتْ عن إقناعي بإجراء عملية تصغير له.

في الواقع، لم أكن مرتاحاً لحجم أنفي، لكنّني أخاف من صالة العمليات. رأيتُها مرّة واحدة في حياتي، وما تزال رائحتها عالقة بأنفي مثل قرادة في خاصرة ثور. كنتُ حينذاك في الرابعة من عمري، وكان لقلبي الصغير نافذة يطلّ بها الأُذينان على بعضهما، فأغلقها طبيب جرّاح، يُدعى شوقي العصبي. لا أدري إن كان هذا اسمه الحقيقي أم كناية عن عصبيّته المفرطة مع المرضى. المهمّ أنّي ما أزال أتذكّر حاجبَيْه الكثيفَيْن وهو يراقب إغفاءتي، كي يضع المشرط في صدري.

الحصول على وظيفة في هذه المدينة صار أمراً يشبه المستحيل

للرجال. لقد سيطرت النساء على المدينة، وأمسينا أقلّيّة مُضطهَدَة. جرّبتُ أن أعمل سائق تاكسي، ولم أفلح. النساء لا يركبنَ التاكسي، لديهنّ ما يُغنيهنّ عن دَفْع أجور إضافية للمواصلات. أما الرجال، فلا رصيد يُسعفهم على تحمّل أجرة التاكسي الباهظة. ما لهم غير ركوب الباص أو الميترو. عملتُ موزّعاً للصحف، لكنّي تزحلقتُ، وكُسرتْ ساقي. فعلتُ كل شيء لأجل الخلاص من مهنة كتابة النكات، ولم أفلح، فمن أين تأتي البشارة، أيها الغراب المتفائل؟!

وصلتُ المنزل أخيراً. مددتُ يدي في جيب المعطف الداخلي. أخرجتُ المفتاح. حشرتُه في قفل الباب. أدرتُه، لم يفتح. أخرجتُه، مسحتُه في صدري، وأعدتُه. كذلك لم يفتح. كان الباب مغلقاً بالمزلاج من الداخل. ضغطتُ على الجرس. رنّة .. رنّتان .. ثلاث رنّات .. إنفتح الباب أخيراً. كانتْ فتاة شقراء طويلة القوام، تحمل باقة ورد أحمر. أهدتْني الباقة، وقبّلتْني، ثمّ أشّرَتْ بسبّابتها، اتبعْني. لابد أنّها إحدى المعجبات بنكاتي السخيفة التي أبيعها على صاحب أتفه جريدة في المدينة، قلتُ في سرّي، ولكنْ، كيف عرفتْ عنوان منزلي؟! وكيف دخلتْ؟! ومن أين جاءتْ بالمفتاح؟! كانتْ علامات الاستفهام تتقافز فوق رأسي. وحين رأتْني الفتاة متسمّراً، قالت: "لا تندهشْ، يا عزيزي، شمّ الورد، واتبعني، من أجل أن نتهامس بكلمات الغزل البذيئة." ولأنّي شخص موغل بالسذاجة، صدّقتُها، وشممتُ الورد، فسقطتُ مغشيّاً. كانت اللعينة قد رشّته بمادّة مخدّرة. وبعد ساعة ونصف الساعة، استيقظتُ لأجد نفسي مكبّلاً فوق سرير أبيض في صالة عمليات بيضاء، يتحلّق حولي فريق من الطبيبات الجميلات!

شككتُ بادئ الأمر بأنهنّ عصابة، تُتاجر بالأعضاء البشرية، فضحكتُ في سرّي، ورفعتُ يدي طالباً الحديث. منعتْني إحداهنّ، بينما سمحتْ

أخرى، واعترضتْ أخريات. تداولنَ الأمر بعد ذلك، واعتلتْ أصوات النقاش، ليقرِّرنَ في النهاية أن يسمحنَ لي بالكلام. فقالتْ صاحبة العينَيْن العسليَّتَيْن:

- تفضّلْ، قلْ ما عندكَ.

- حسناً، اسمعيني، أيتها الجميلة، قبل أن تتورّطي: إنّ قلبي متعب، لا ينفعكِ في شيء.

- ما به؟

- فيه فتحة أغلقَها شوقي العصبي قبل ثلاثين عاماً ونيّف، ويبدو أنه قد نسيَ أحد أزار قميصه هناك، هل تريدين أن تبيعي قلباً فيه زرّ قميص؟!

ضحكت الطبيبة، وقالتْ:

- حسناً، اطمئنّ، لا شأن لي بقلبكَ.

لا تريد قلبي! هذا يعني بأنها ستقتلع إحدى كليَتَيّ، فأسعار الكِلى باهظة هذه الأيام، يا إلهي، ماذا أفعل؟!

أحضرتْ أبرة مخدّرة، وقالتْ استرخِ، فتوسّلتُها بجملةٍ ثانية، فسمحتْ لي على مضض:

- تفضّلْ، قُل ما عندكَ بسرعة.

- كِليَتَاي متعبتان أيضاً، لا نفع يُرتجى منهما.

- ما الذي أتعبهما؟

- كثرة الرَّكْل، يا سيّدتي.

- الرَّكْل؟!

- نعم، الرَّكْل، فقد كنتُ سجيناً لدى جلّاد يتسلّى بالرَّكْل على الخاصرة .. أرجوكِ، دعيهما.

رأيتُ علامات التأثّر قد ارتسمتْ على وجه الطبيبة، لكنها، ومنعاً لهبوط دمعة، ترقرقتْ في محجر عينَيْها العسليَّتَين، بادرتْ:

اطمئنّ، لا حاجة بنا لكليتَيْكَ.

في الواقع، لم يُرحني الجواب، فذلك يعني بأنّي سأفقد واحدةً من عينَيّ، على أقلّ تقدير، فاستأذنتُها بالكلام مجدّداً.

- ماذا تريد أيضاً؟

- لا تتورّطي في عينَيّ.

حينئذٍ دَنَتْ إحدى المساعدات، وهمستْ في أذنها، بصوت لم يكن منخفضاً بما فيه الكفاية، بأنّ الوقت يمضي، وعليها ألا تضيّعه في الاستماع لثرثرتي، لكنّ الطبيبة رفضتْ ذلك، وقالتْ لي:

- هل عيناكَ مُتعَبَتَان أيضاً؟

قلتُ:

- نعم، بل مُتعَبَتَان جداً.

- مِمّاذا؟!

- من كثرة البكاء.

- على ماذا؟

- على فَقْد الأحبّة، يا سيّدتي، فمنذ عشرين عاماً وبابي مؤصَدة، لم يطرقها حبيب.

حينذاك مسحتْ عن وجنتَيْهَا دمعَتَيْن تقافرتا، وطبطبتْ على كتفي، وقالتْ: "كنْ مطمئناً، أرجوكَ، فلن تفقد عينَيْكَ."

"يا إلهي! يا إلهي! ماذا يجري؟!" قلتُ مع نفسي، وقد بدأ القلق يأكل في قلبي مثل سمكة تلتهم طُعماً شهيّاً. فهؤلاء الفتيات لا يرغبنَ في قلبي ولا كليَتَيّ ولا عينَيّ! لم يبقَ سوى .... يا الله! لا أريد أن أفقد رجولتي، لا أريد أن أكون مخصيّاً في بلاد، يشحّ فيها الذُّكُور. رفستُ الفتاة الواقفة عند قَدَمَيّ، إذ ذاك، فأسقطتُها، وشرعتُ بالصراخ. مدّت الطبيبة يدَها كي تُغلق فمي، فعضضتُها، وآلمتُها. كنتُ أصارع الهواء محاولاً الإفلات. لعن اللهُ الغرابَ الأسود وبُشراه، سيقطعون ذَكَري الليلة. نهضت الطبيبة من الأرض. استعادتْ تماسكها بعد أن ربطتْ جرح يدها بلفافة، وقالتْ من على بُعد خطوات:

- اهدأ، يا عزيزي، أرجوكَ، لسنا بحاجة له، الأسواق مليئة بمثل هذه الدمية المقرفة، اهدأ، اهدأ.

- ماذا تريدين منّي، إذن، يا بنت الكلب؟

- لا شيء، صدِّقني، فقط نرغب في تحسين البيئة.

- البيئة؟! قلتُ بعد أن توقّفتُ عن الرَّفْس والصراخ.

- نعم، البيئة، من واجبنا الحفاظ عليها.

- وما دخلي أنا بالبيئة؟

- لقد وصلَنا إخبار من جارتكَ العجوز، السيّدة سولڤاي هونسن بأنّ أنفكَ يستهلكُ ما نسبتُه خمس وستّون بالمائة من الأوكسجين المتاح في الجوّ، لذا قرّرنا أن نُجري له عملية تصغير، من أجل الحفاظ على البيئة، فأرجو أن تهدأ، وتدعني أقوم بعملي.

- حسناً، تفضلي عزيزتي، قومي بعملك، لعن اللهُ الغرابَ وبُشراه.

الأسطى

ما إن ركبتُ الطائرة حتّى رَسَتْ أساطيل الذكريات في رأسي، فالطيران نحو المُدُن الأولى يستحضر الذكريات الأولى. تذكّرتُ وأنا أرقب اللوحة الألكترونية التي تشير بين الفينة والأخرى إلى ما تبقّى من زمن الرحلة، ذلك السرداب المظلم. كنتُ يومذاك صحفياً طازجاً، قد تخرّجتُ للتوّ من قسم الإعلام في كُلّيّة الآداب، وكان حماسي الشديد قد دفعني لكتابة تقرير صحفي مطوّل، صُنّف فيما بعد بالتقرير المسموم. كان ظاهره السخرية، وباطنه النقد. تحدّثتُ فيه عن المطابع العراقية، والرقابة التي تُمارَس على طباعة ونشر الكُتُب، وصدّرتُه بمقولة للرئيس: "اكتبوا بلا تخوّف ولا تردّد أو تقيّد لاحتمالات أن تكون الدولة راضية أو غير راضية عمّا تكتبون." ثمّ دفعتُه للنشر.

كان النشر في الصحف وقتذاك يمرّ بفلاتر عدة، تبدأ بفلتر السلامة الفكرية، وتنتهي بفلتر النوايا. ولأنّي صحفي تحت التدريب وغير مُنتمٍ للحزب، كان فلتر النوايا ضيّقاً نوعاً ما. لذلك قرّر المحرّر أن يعيد قراءة التقرير غير مرّة، ثمّ دفعه إلى رئيس التحرير قبل نشره.

كان رئيس التحرير، سعيد سامي درباس، عليه ما على الطبل يوم العيد، يرتدي البدلة الزيتوني، ويضع في خاصرته مسدّساً عيار ٩ ملم منحوتاً عليه رأس طارق بن زياد، وعلى صدره يعلّق صورة صغيرة مُدوَّرة للرئيس، وفي

معصمه ساعة يدوية بيضاء، فيها صورة الرئيس أيضاً. كان درباس حزبياً حدّ النخاع، يعشق الرئيس عشق الذباب للقمامة. وكان زملاؤه يلقّبونه بالأسطى لمهارته في التسلّق والتملّق ومَسح الأكتاف. أمسك بالتقرير يومذاك، وأمعن في قراءته، ثمّ رفع سمّاعة الهاتف،واتّصل بالسكرتيرة:

- نادي لي، على نوفل.

- حاضر، أستاذ، ردّت السكرتيرة الحسناء.

وبعد ثلاث دقائق، كنتُ ماثلاً أمامه. أجلسَني قربه، وطلب لي شاياً، ثمّ بدأ يُدردش معي. استغرق الأمر ساعة، طلب منّي الانصراف بعدها. الغريب في الأمر أنّه لم يخبرني رأيه في التقرير، وما إذا كان سيسمح بالنشر أم لا!

على كل حال، أنهيتُ ذلك النهار في الصحيفة، وعدتُ إلى البيت. وفي الليل، وبعدما انتهينا من العشاء، سمعْنا طَرْقَ باب عنيفاً. كانت أمّي تغسل الصحون في المطبخ. انزلق منها صحن، وانكسر. وضعتْ يدها على صدرها، وهُرعتْ خلفي. كانت خائفة. فتحتُ الباب. كان مخبران من الأمن يقفان هناك، وسيّارة دَفْع رباعي مظلّلة الزجاج تنتظر. طلبا منّي مصاحبتهما.

- وين؟!

- استفسار، نص ساعة، وترجع.

حاولتْ أمّي الإمساك بي، فدفعها أحد المخبرَيْن، وأغلق الباب. أمسك الآخر بذراعي. فتح لي الباب من جهة اليمين، وأدخلني. كان مخبر

ثالث بشاربَيْن كَثَّيْن، يجلس في الداخل. أغلق الأول الباب بعد أن ركب بجانبي من جهة اليمين، أما الساقط الذي ركل أمّي، فجلس في الأمام. عرفتُ فيما بعد بأنّه ضابط. كان السائق يناديه: سيّدي.

قبل أن تصل السيّارة المظلّلة إلى مديرية الأمن، أخفض مخبر اليمين رأسي هاتفاً: "دَنّجْ راسكْ، أخ القحبة." فأدركتُ حينها بأنّ الأمر سيتعدّى "النصف ساعة" بكثير. سارتْ السيّارة لعشر دقائق، ثمّ توقّفتْ عند بوّابة كبيرة. سُمح لها بالدخول. مرّتْ في دهليز طويل، ثمّ توقّفتْ.

- نزّلوه هالإبن الكلب، قال الضابط بعد أن ترجّل.

- صار، سيّدي، أجاب المخبران.

وضع أحدهما عصابة على عينيّ، ثمّ شدّ يدَيّ بخرقة إلى الخلف، وأنزلني من السيّارة. اقتادني إلى الداخل. هبط بي مع أحد حرّاس السجن نحو ممرّ ضيّق. توقّفنا قليلاً. أخرج الحارس مفتاحاً. أدخله في القفل، وأزاح المزلاج، فانفتح الباب على سرداب مظلم، تفوح منه رائحة الخراء والبول. فكَّ المخبرُ وثاقي، وأزاح العصابة عن عينَيّ، ثمّ صفعَني بكلتا يَدَيْه على قفاي شاتماً: "فوتْ أنعل أبوك لأبو شرفك."

أعلن الكابتن عن اقتراب هبوط الطائرة مطالباً برَبْط الأحزمة. ربطتُ الحزام، وأغمضتُ عينَيّ. إغماض العينَيْن لعبة، كنتُ أمارسها مع الظلام داخل ذلك السرداب النتن. كان مظلماً حدّ الوحشة. يتسرّب إليه في المساء خيط ضياء رفيع من الأعلى. لا أدري مصدر ذلك الضياء البخيل، لكنه كان كفيلاً بكَشْف حركة الجرذان التي تعشّش في السرداب. كنتُ أُغمض عينَيّ طويلاً، ثمّ أفتحهما في لعبة لمعادلة الضوء، فكان ما حولي

يبدو مضيئاً نوعاً ما. رأيتُ في الليلة الأولى جرذاً بذيل طويل يتحرّك بنشاط غريب. راقبتُه. يا ترى، ما بال هذا الجرذ لا يهدأ؟! أهو جائع؟! لا أدري. أغمضتُ عينَيّ. استزدتُ من الظلمة، ثمّ فتحتُهما، لأجد الجرذ قد هدأ. لقد كان مشغولاً في مضاجعة أنثاه! "وكتها؟!" تساءلتُ في سرّي، وضحكتُ.

وبعد ثلاثة أيام من الانتظار داخل سرداب الجرذان، حضر أحدُهم. كان شرطياً طويلاً بملابس مَدَنيّة. اقتادني معصوب العينَيْن نحو غرفة التحقيق. كان المحقّق برتبة رائد، كما هو مكتوب على اللوحة الخشبية فوق مكتبه، وكان عنجهياً يضع رجلَيْه فوق المكتب، ويمسك بيده مهشّة ذباب. "يا هلا، بالصحفي العظيم، يا هلا، بالأستاذ نوفل." قال مستهزئاً، ثمّ قام من خلف المكتب، واستدار نحوي. وجّه لي لكمة عنيفة، وأمر الحارس الطويل بخَلْع ثيابي، ورَبْطي على الكرسي. كنتُ عارياً مقيّداً في قبالة محقّق ساديّ. أشعل سيجارة، وبدأ ينفث الدخان بوجهي.

- إي نوفل، سولف.

- شْأسولف، سيّدي؟

- شنو علاقتكْ بحزب الندوة الإسلامية؟

- يا حزب الندوة؟! الله يخلّيكْ، سيّدي، آني صلاة ما أصلّي.

- امممم، ما تصلّي، يعني شيوعي.

- لا، شنو شيوعي، آني ما منتمي أصلاً.

أزاح الرماد عن السيجارة. نفخ عليها، فتوهّجتْ، ثمّ أطفأها في سرّتي.

لم أتوقّع بأنّ منظر الجرذان المتضاجعة يجلب الشؤوم إلى هذا الحد! لقد عدتُ تلك الليلة إلى السرداب، وقد أُطفئتْ في جسدي خمس عشرة سيجارة، وأُدمي ظهري من السياط التي كان الشرطي الطويل يلاعبها فوقه.

أغمضتُ عينَيّ، وصككتُ أسناني ريثما هبطت الطائرة على أرض مطار بغداد الدولي. "الحمد لله على السلامة." قالها أحدهم. لم أره، فما يزال السرداب مظلماً، وما أزال أئنّ من الوجع. مدّ يده على كتفي، وقال بأنّه سيُشاطرني العيش في السرداب. كان طبيباً رفض أن يقطع صيوان الأذن للهاربين من الخدمة العسكرية، فقطعوا له أذنه، وجلبوه قربي. لقد كانتْ تلك عقوبة فنطازية، خلّفتْ جيلاً من الشباب المشوَّهين. قطع صيوان الأذن، يا لها من ساديّة حديثة!

درّبتُ، في اليوم التالي، صاحبي على لعبة إغماض العينَيْن، وصرنا نراقب معاً حركة الجرذان في السرداب. أنيساً كان الدكتور مؤيد رغم حزنه على أذنه التي قُطعَتْ، ومستقبله الذي ضاع. رويتُ له حكايتي مع سعيد الأسطى، رئيس التحرير الحزبي الذي حاك لي تهمة الارتباط بحزب الندوة "العميل"، وحكى لي قصة أمّه التي أُصيبتْ بالجلطة القلبية حالَما رأتْ أذنه مقطوعة.

كنّا كل ليلة نعود من جلسات التحقيق مضرَّجَيْن بالدماء، نحصي عدد السجائر التي أُطفئتْ في جَسَدَيْنا. استمرّ الحال كذلك حتّى كلّ مَتْنُ المحقّق من الضرب دون جدوى، فأمر بالإفراج عن الدكتور مؤيد، والإبقاء عليّ حتّى إشعار آخر. لقد أيقن بأنّ الأمر كيديّ، وأنّي بريء من تهمة الانتماء إلى حزب الندوة الإسلامية، لكنّه أبقى عليّ، ظلماً، لسَنَتَيْن كاملَتَيْن هناك.

سنتان مظلمتان في سرداب بارد ورطب، بلا ذنب ولا جريرة، كانتا كفيلَتَيْن باتخاذ قرار الهجرة. لقد عبرتُ الحدود باكياً قبل عشرين عاماً، وها أنا أعود باكياً. بكيتُ كثيراً حين غادرتُ بغداد، وبكيتُ أكثر حين شممتُ هواءها. بغداد تلك الأمّ الرؤوم التي رغم حنانها لا تعرف كيف تحتفظ بأبنائها!

حملتُ حقائبي، وخرجتُ من المطار. كان في انتظاري الدكتور مؤيد، الذي عثرتُ عليه قبل عام في موقع فيسبوك. كان يطيل شعره، ويُسدله على أذنيه في محاولة بائسة لتغطية الصيوان المقطوع. حمل عنّي الحقائب، ووضعها في صندوق سيّارته، وانطلق بنا نحو مركز المدينة. قال بأنّي مَدعوّ، على حسابه، على وجبة كباب فاخرة. ضحكنا ونحن نستذكر ليالي السرداب الباردة، وشبق الجرذان هناك.

قرب باب المطعم، كان رجل طاعن في السّنّ يبيع الجرائد. توقّفتُ قليلاً لتصفُّح العناوين. جذب انتباهي اسم جريدة مخطوط بخطّ التعليق؛ الندوة. سألتُ صاحبي:

- هاي الجريدة تابعة إلمَن؟

- لحزب الندوة الإسلامية.

"آه، لي مع هذا الحزب حكاية لا تُنتسى." قلتُ في سرّي، واشتريتُ الجريدة، وشرعتُ في قراءة العناوين. وأنا أقلّب الجريدة قبل أن يحضر الكباب، سقطتْ عيني على أعلى يمين الصفحة الرئيسة، فأصابتْني هستيريا الضحك.

- شبيك نوفل؟ على شنو تضحك، سألني مؤيد.

- الأسطى.

- شنو؟!

- سعيد الأسطة.

لم يفهم صاحبي القَصْدَ، فتناول الجريدة من يدي، وبدأ يقرأ. أشرتُ له إذ ذاك بإصبعي إلى أعلى الصفحة. كان مكتوباً في تلك الزاوية من الجريدة: "رئيس التحرير: د. سعيد سامي درباس" فنظر لي، وقال مستفهماً: "أليس هذا هو الشخص الذي أدخلكَ السجن بتهمة الانتماء لحزب الندوة العميل؟!" فقلتُ: "نعم، هو بعينه، سعيد الأسطة." فقال وقد حضر الكباب: "فعلاً أسطى .. أكُل، حبيبي، أُكل."

حساء جلجامش

لم يغمضْ له جفن تلك الليلة. كان القلق يضطرم في قلبه مثل كوّة نار، وحالما انسلّ ضياء الفجر عبر النافذة، غادر الفراش. أبدل ثيابه، وخرج. ظلّ يمشي بين الأزقّة والحواري لساعتَيْن، ثمّ استأجر تاكسي إلى حيّ المنصور، حيث مقر انعقاد اللجنة هناك. تفاجأ بطابور طويل من المتسابقين، يمتدّ أمام المبنى. انضمّ إليهم بعدما فشلتْ كل محاولاته في الاختراق، والحصول على مكان قريب. على البوّابة، كان يقف ملازم مربوع، يلوّح بعصا طويلة، ويضرب كل مَنْ سوّلتْ له نفسه اختراق الطابور. وبعد أربع ساعات تحت شمس بغداد الحارقة، نادى الملازم:

- عبد السلام فايز قدوري.

- نعم، سيّدي، أجاب بحماس.

- انزعْ، وادخل.

- حاضر، سيّدي.

خلع ثيابه أمام الباب، ودخل. كان بين الباب والقاعة دهليز أظلم، تمتدّ على جانبَيْه أبواب صغيرة، يختبئ خلف كل واحد منها جنديّ ضخم، مهمّته صفع المتسابق على قفاه حتّى يصل. اجتاز عبد السلام الدهليز بستّ عشرة صفعة، ودخل إلى القاعة محاولاً تفادي النور بيده. استقرّ بصره على ثلاثة ضبّاط برُتب عالية، يجلسون خلف طاولة مرتفعة. كان رئيس

اللجنة مفتول الشاربَيْن، حاملاً على كتفه نسراً وثلاث نجمات، وكانتْ مهمّته إلقاء الأسئلة على المتسابق، بينما وقعتْ مهمّة تدوين الإجابات على ضابط اليمين ذي الكرش العظيم. أما ضابط الشمال، فكان صاحب المهمة الأصعب في اللجنة، فقد كان عليه مراقبة الخصيَتَيْن، وقياس مستوى ثباتهما لدى المتسابق عند الإجابة. ثبات الخصيَتَيْن يعني ثبات المبدأ، احفظوا ذلك.

دقّ الرئيس بالمطرقة على الخشب مفتتحاً الجلسة، ثمّ بدأ بطَرْح الأسئلة. أجاد عبد السلام الحديث بادئ الأمر، وكانت الإجابات سليمة تماماً، لم يرافقها أيّ اهتزاز في الأسفل. لكنه، وما إن شعر بأنّ الاختبار قد اتخذ منحىً آخر، حتّى بدا عليه الارتباك قليلاً، فقد شرع رئيس اللجنة بالنبش في التاريخ، وأخذ يسأل عن خصوصيّات أحد القادة الميدانيين لمعركة وقعتْ قبل ألف عام ونيّف. كان يريد من عبد السلام أن يخبره بلون السروال الذي كان يرتديه قائد الجيش آنذاك! ممّا حدا بالمسكين أن يتردّد في الإجابة، فاهتزّتْ خصيتاه، وسقط في الاختبار.

ارتدى ثيابه، وخرج موقناً بأنّ النبش في التاريخ مثير لاهتزاز الخصيَتَيْن. كان في انتظاره عند الباب خاله يعقوب. سأله عن النتيجة، فكان الجواب: "فاشل". ربّت على كتفه مُطَمئِناً إياه، ثمّ اصطحبه إلى مطعم صغير في محلّة البتاويين.

صفّق الخال، حالما جلس، فحضر النادل.

- تفضّل، أستاذ، أأمرني.

أشار إليه أن يُطأطئ قليلاً، همس في أذنه، فهزّ النادل رأسه، ومضى. وبعد هنيئة، عاد وهو يحمل على يَدَيْه طبقَي حساء ساخن. وضعهما على الطاولة، وعاد إلى المطبخ.

لم يلتفتْ عبد السلام، بالطبع، لما يجري، فقد كان سارحاً في الفرصة التي ضيّعها للتّوّ، نادماً على سُمعته التي تلوّثتْ في سجلات الدولة، إذ سيُكتب أمام اسمه: "غير ثابت على المبدأ" وسيُحرَم، لا محالة، من الحصول على وظيفة حكومية مدى الحياة، ما لم ينجح في الاختبار اللاحق.

- تفضّلْ، خال، مدّ يدك، قال الخال يعقوب.

- شكراً، خال، ردّ عبد السلام، وشرع في تناول الطعام.

كان يأكل بنهم رغم أنه لا يعلم ما في الأطباق، فالطعام، ورغم قذارة المكان، كان لذيذاً.

سأل خالَه بعد أن شارف الطعام على النهاية، عن اسم ذلك الحساء، إذ لم يكن قد جرّب تناوله من قبل، فردّ الخال يعقوب ببرود: "حساء جلجامش".

- حساء جلجامش؟! قال عبد السلام بدهشة.

- نعم، يا بُنَي، هذا اسمه، لمَ العجب؟

- ألا تظنّه اسماً غريباً بعض الشيء؟ ممّاذا تمّ طبخه؟

انتهى الخال يعقوب من طعامه، وتناول منديلاً، مسح به فمه، ثمّ أخرج من جيبه علبة التبغ. لفّ سيجارة، وأشعلها، ثمّ اتّكأ إلى الوراء قليلاً، وقال: "هذا الحساء، يا بنيّ، من اختراع جلجامش العظيم، كان قد صنعه بنفسه، ودعا إليه صديقه أنكيدو قبل أن يبدأا رحلتهما نحو غابات الأرز، ويقتلا حارس الغابة خومبابا المخيف. يتكوّن من كُلى أسد بربريّ صنديد مهروسة في زيت تمساح أفريقي عازب، ومخفوقان بدم جاموس برّيّ، مع رشّة بابونج وملح، يُطبَخ المزيج على نار هادئة، ويُتناوَل في الظهيرة عند زوال الشمس."

قام عبد السلام مفزوعاً حين سمع بمكوّنات الطعام، وهرول نحو الحمّام، كي يُفرغ معدته، لكنّ الخال يعقوب أمسك به، وأعاده إلى المنضدة بحزم صارخاً بوجهه: "حساء جلجامش هو ما سيُعيد لكَ كرامتكَ، يا غبيّ." ثمّ طلب له إناءً آخر، كرعه المسكين دفعةً واحدة، فاحمرّتْ عيناه، واشتعلت النار في صدره، وبعد ساعتَيْن، أمسى يزأر أمام المرآة.

داوم عبد السلام على تناول ذلك الحساء العظيم لسنة كاملة، كان في كل يوم منها يخلع ثيابه بعد الأكل مختبراً ثبات خصيَتَيْه أمام المرآة، وحين تيقّن من ثباتهما، تقدّم إلى لجنة الاختبار من جديد.

كانتْ تلك المرّة الثانية والأخيرة، وكان عليه أن ينجح في الاختبار، وإلا فسيُكتَب على جبينه مدى الحياة: "غير ثابت على المبدأ."

انحشر في طابور المتقدّمين، ومرّ في دهليز الصَّفْع على القفا حتّى مثل أمام اللجنة عارياً. كان ثابتاً من رأسه حتّى أخمص قَدَمَيْه. أُلقيتْ عليه عشرات الأسئلة، ولم يهتزّ، نُبش برأسه التاريخ كلّه، لم يهتزّ، تعرّض للصَّعْق بالكهرباء، لم يهتزّ. كاد ضابط الشمال ألا يصدِّق عينَيْه، حتّى الصَّعْق لم يحرّكهما مقدار ميكرومتر واحد! يا إلهي! كيف يثبت الناس على مبادئهم إلى هذا الحد؟!

نجح عبد السلام في الاختبار أخيراً، وصار قائداً عسكرياً، يُشار إليه بالبنان، واستغنى عن حساء جلجامش، لكنّه، وبعد أعوام من القيادة الناجحة، عُلّقتْ مشنقته وسط الميدان، وأُعدم أمام جنوده. كان ذلك حين شاهد راية ترتفع وسط الميدان مطرّزةً بحروفٍ، تنبش في التاريخ، فاهتزّتْ خصيتاه لها، وحُكم عليه بالخيانة، وعدم الثبات على المبدأ.

انفجار

ما زال المكانُ، رغم وحشتهِ، مليئاً بالحكايات. بعد ساعةٍ، سأكون قد أمضيتُ ثلاث ليالٍ فوق هذه التّلّة الترابية الصغيرة. سمعتُ حتّى الآن ثلاثمائة حكاية وحكاية، كان القاسمُ المشترك بينها «انفجاراً»! غير أنّ أغربَ ما سمعتُ؛ حكاية ذلك العاشق المسكين. قبل دقائق كان هنا. يقول بأنّه حين هزّ انفجارٌ هائلٌ جدرانَ البيت، شعر بالطيران لارتفاعٍ منخفض مثل دجاجة قبل أن يسقطَ إلى الأرض. لم يسمع، وهو يطير، غير تناثُر قِطَع الزجاج من النافذة خلفه. هُرع نحو المطبخ؛ إذ ذاك. كانت مُمدَّدةً على الأرض مثل حمامةٍ، أصابها خرطوشُ نار، فسقطتْ تسبحُ بدمها. سعاد .. سعاد، صرخ محاولاً إيقاظها. لكنّها لم تُجبْه. كانت عيناها شاخصَتَيْن نحو السقف، بفزعٍ كبير، بينما فمُها فاغرٌ، وكأنّها صرختْ قبل أن تسقطَ. ربّما تكون قد نادتْ عليه طالبةً منه النجدةَ، لكنّه لم يسمعْ حينذاك سوى صوت الانفجار وتناثُر الزجاج فوق رأسه. حاول حَمْلَهَا إلى الصالة، لكنها لم تتزحزحْ، بحث عن ضمادة، كي يضعَها على جرح رأسها، لم يجدْ. هرولَ نحو الباب حينئذٍ، كانت السماء مُغلَّفةً بدخانٍ أسود، وأصواتُ سيّارات الإسعاف ترجُّ المكان، بينما يغلقُ الشرطةُ المداخلَ والمخارجَ، ولا أحدَ يقترب. قال أحدُهم بأنّ الشرطة قد منعُوا الأهالي من الاقتراب إلى مكان الحادث خشيةَ أن يكون الانفجارُ مزدوجاً، وهي مصيدةٌ اعتاد الإرهابيون نصبَها مُؤخّراً؛ سيّارتان مَحشوَّتان بالديناميت، تنفجرلن بالتعاقُب عن بُعْد،

فتحصدُ الأولى أرواحَ الضحايا، ثمّ تحصدُ الثانيةُ أرواحَ مَن هُرع لإنقاذهم. الإرهابُ فنُّ القتل الحديث، يقول ساخراً، ثمّ يتابعُ الكلام، نادى بصوت مبحوح، طالباً النجدةَ، لكنّ أحداً لم يلتفتْ. أعادَ الاستغاثةَ مرَّاتٍ ومرَّات، لكنْ، دون جدوى. يبدو أنّ الآخرين قد أصابهم الصَّمَم. هذا ما هَمْهَمَ به قبل أن يعودَ إلى الدار، ويُغلقَ الباب. سعاد سعاد، ما زالت خرساءَ، جلسَ عند رأسِها، وشرعَ بالبكاء مثل طفل أضاع أمَّه في زحمة السوق.

تذكّر، والدمُ يطلي وجه زوجته، ذلك اليوم الذي جمعهما معاً داخل الملجأ. كانت طائرات التحالف قد بدأت بقَصْف المنشآت الحيويّة القريبة من الأحياء السَّكَنيّة، وكانت سعاد قد لجأت مع أفراد عائلتها للاختباء في ذلك الملجأ المُحصَّن. اتّخذت العائلةُ حين وصلتْ مكاناً في الزاوية البعيدة لمزيد من التحصّين. يقول بأنّ صوت القنابل كان مُخيفاً، لكنه نسيَ هواجسَ الخوف كلّها حين رأى وجهها ذاك. كانت لم تزلْ صبيّةً في العاشرة من عمرها، تصغرُهُ بثلاثة أعوام لا غير. سمراءُ بضفيرة سوداء طويلة وعينَيْنِ عسليَّتَيْنِ. أحبَّها مذ رأى الخوفَ في عينَيْها، وحين انفضَّت الغارةُ، تبعها حتّى استدلّ على محلّ سُكناها. كانت تسكن في المحلّة القريبة التي يسكنُ فيها خالُهُ الأوسطُ، فصار يقضي النهار في بيت الأخير طَمَعاً في رؤيتها.

يقول وهو يضحك بأنّه حين سمع خالَهُ ذات يوم يُلقِّنُ ابنَه الكبير حكمةً، تلقَّفَهَا، وأفاد منها في قصّة حبّه مع سعاد. كان الخال يقول بأنّ كثرة الطَّرْق على الحديد تفكُّ اللحام، فشرع صاحبُنا بالطَّرْق على قلب سعاد حتّى فكَّ بابَهُ، وأقام فيه بشكل دائم. سعاد .. سعاد، لا جواب! نامت سعاد إلى الأبد. أسدل عينَيْها، وقبّلها، ثمّ غادر الدارَ بعد أن أمسى

غريباً. فَقْدُ الأحبّة غُربةٌ، كما تشير اللوحةُ المُعلَّقةُ داخل البرواز الفضّيّ في الصالة. مشى مُتحدِّياً قرارَ الشرطة. تخطّى جثث القتلى واحدةً واحدةً. كان الأمر شبيهاً بحفلة شواء بشريّة، جُثثٌ مُتفحِّمةٌ تتناثر على الطريق، وسيّارات ما زالتْ مشتعلةً بمَنْ فيها. شاهد وهو يعبرُ إلى الضفّة الثانية رأساً متدحرجاً مثل كرة نار، وطفلاً محترقاً بلا أطراف، ونسوةً فضحت النيرانُ أجسادهنَّ، وحوّلتهنَّ إلى دمى مُشوَّهة. مرّ من قُرب السيّارة التي كانت مُحمَّلةً بالديناميت وغاز الكلور والمسامير، التي تسبَّبتْ بهذا الشواء العظيم كلّه، فوجدها ما زالت مشتعلة، ولا أحد يقترب. كانت تشبه مَصْهَراً في ورشة حِدَادة. صعد فوقَها محاولاً إخمادَ النار. لم يجدْ ماءً حينذاك، فخلع سروالَهُ، وبالَ عليها، لكنّها لم تنطفئ، ارتفعْ منها لسانُ لهب في محاولة للسخريّة منه. قفز إلى الأرض، ومضى في طريقه. نادى على سائق سيّارة الإسعاف الذي يخشى الاقترابَ هو أيضاً، لكنّ السائق لم يلتفتْ. «لا أدري إن كان قد سمعني أم لا، فلم يزلْ صوتي مبحوحاً حينها.» عقَّبَ قبل أن يُعاودَ سردَ الحكاية. طلبتُ منه أن يسترسل طَمَعاً في معرفة النهاية. للنهايات لذَّةٌ لا يعرفها إلا مَنْ أدمنَ الاستماعَ للحكايات المُؤسِيَة.

زفر في الهواء بحرقة، واستأنف الكلام. قال بأنّه اتّجه صوب رجال الشرطة، ليتوسَّلَهُم واحداً تلوَ الآخر، كي يرافقوه إلى الدار. كان يريد منهم إخراجَ سعاد قبل أن تنفجرَ مُفخَّخةٌ أخرى، وتهدمَ البيت فوقها. هو يعلم بأنّها قد ماتتْ، لكنّه لا يريد أن تتهشَّم أضلاعُها تحتَ الأنقاض. كان يريد لها شاهداً يشتل عنده شجرة حنّاء، ويضع فوقه، كلَّ صباح، وردَ الياسمين الذي تحبُّه. نادى عليهم، صرخ بهم، بَصَقَ في وجوههم، لم يكترثوا! دوَّى حينئذٍ انفجارٌ هائلٌ آخر، أحالَ بيوت الحيّ إلى حطام. يئس إذ ذاك صاحبي من أن تكون لزوجته شجرة حنّاء تستظلُّ بها، أو وردةُ ياسمين تشمّها، فغادر.

لقد ظلّ هائماً في الطُّرُقات ليلَتَيْن كاملَتَيْن قبل أن يصلَ عندي. جلس ههنا بالضبط، على هذه التّلّة المجاورة، قصَّ عليَّ حكايتَهُ السوداء، ثمّ نزل مع جثمانه إلى داخل الحفرة. كان محظوظاً؛ إذ لم ينهدمْ سقفُ الصالة، بينما دُفنتْ سعاد تحت سقف المطبخ. أما أنا، فما زلتُ بانتظار أن يعثرَ على جثّتي أحدُهم، كي أنام في حفرتي، وأستريح.

سيّد الخراف

كان يجلد الخَدَم، وعندما يشعر بالملل ينادي على صفوان، كي يتسلّى بضَرْبه. لقد تعوّد صفوان، حين يُنادَى عليه، أن يخلع سرواله، ويتخّذ وَضْع الكبش قبل أن يبدأ حفل الجلد والضحك. كان يجلده بالعصا على مؤخّرته، ويضحك، بينما كان صفوان يبكي بصمت. استمع لغصّته غير مرّة، لكنه لم يكترث، فهو ملك، وليس من عادة الملوك الاكتراث للخَدَم. منذ عشرين عاماً وهو يعيش في قصر كبير، ومَنْ يعيش في قصر كبير لا بد أن يكون ملكاً.

كان حين يكلّ متنه من جَلْد صفوان، يبصق في وجهه، ويأمره بالانصراف. وكان صفوان يمسح البصاق من جبهته البيضاء التي يتوسّطها خال أسود، وينصرف بصمت وانكسار. مُسليّاً كان صمت صفوان وخضوعه. لكنّ الملك قد أطلق سراحه مؤخّراً. صرفه من القصر بعدما صرف الطاهي والسايس وباقي الخَدَم.

في الواقع، هو لم يُسرِّحهم بَطَراً، فالملوك يموتون حين لا يجدون مَنْ يتسلّون بضَرْبه وتوبيخه، لكنّ جِلده بدأ يتساقط في الأيام الأخيرة، وصار يكتسي شيئاً فشيئاً بالصوف، لذا صرف الخَدَم قبل الفضيحة.

أظفاره هي الأخرى تساقطتْ، ونبتتْ مكانها حوافر. صوته اختفى، وفَقَدَ القدرة على النطق. كلماته تبدّلتْ إلى معمعة، وأمستْ يداه

تلامسان الأرض عند المسير. لقد تحوّل الملك الصنديد إلى كبش وحيد في قصر كئيب. وحيداً يُمعمع، لا طعام ولا شراب ولا خَدَم ولا حِفلات رَكْل. وبعد أيام من الرعي في حديقة القصر والقضاء التامّ على العشب النابت فيها، قفز إلى الشارع بحثاً عن طعام صالح للاجترار. وصل الى أطْراف المدينة سيراً على الأربعة، ولم يجد ما يأكله. انعطف نحو الغابة، فظفر ببعض الحشائش. وعندما حلّ المساء، أمسك به ذئب. أعاده عنوةً إلى القصر، ومنذ تلك اللحظة، وهو يمارس معه سلطة الذئاب؛ كل ليلة يركله على مؤخّرته، ويعوي منتشياً. كان ذئباً أبيضَ، تتوسّط جبهته بقعة سوداء صغيرة.

كُنْ سمكة

حين انتصف النهار، خطرتْ لي فكرة. قلتُ لنفسي: "لمَ لا تذهب إلى البحر، يا نزار؟" فمُذ غادرتْ صوفيا، وقَدَمَاي لم تلمسا رملة الشاطئ. كنّا نداوم على الذهاب هناك قبل أن تهجرني، وتغيب. فقد صحوتُ ذات صباح لأجد قصاصةً قرب السرير. كتبتْ عليها بأنّها قد جزعتْ من هذه الحياة، وستختار حياةً أخرى أكثر هدوءاً. كان هذا قبل عامَيْن بالتمام والكمال. لا أدري أين ذهبتْ، وأيّ حياة اختارتْ! فأنا لم أسمع أخبارها منذ تلك القصاصة.

ركنتُ السيّارة قرب الشاطئ، وترجّلتُ. كان الشاطئ خالياً على غير عادته إلّا من عاشقَيْن اثنَيْن، كانا قد سلّما جسدَيْهما العاريَيْن إلى أشعّة الشمس. الشمس أمّ الحياة. خلعتُ نعلي، كففتُ بنطالي، وفككتُ أزرار قميصي، كما كان يفعل المرحوم رشدي أباظة، وهو يمسك بيد الحسناء شادية على الشاطئ في فيلم الطريق. الفرق بيني وبين أباظة هو أنّي كنتُ وحيداً بلا شادية.

وبعدما قطعتُ الشاطئ مرَّتَيْن ذهاباً وإياباً، جلستُ على صخرة كبيرة، يغطس جزؤها الأكبر في الماء، كما يغطس رأسي في الهَمّ. كنتُ حزيناً حدّ الإعياء. الوحدة أم الحزن. وفي الأثناء، هاج البحر وماج، ثمّ قذف سمكة كبيرة. لم تكن سمكة. كانتْ حوريّة رشيقة، قفزتْ إلى الأعلى، ثمّ

استقرّتْ على صخرة أمامي. كانتْ تشبه صوفيا، لا.. لا.. هي صوفيا بشحمها ولحمها، أكّدتْ لي ظنّي حين نادتْ عليّ باسمي: "هاي نزار، كيفك؟" وبلهجة شاميّة يشوبها العُجم، فصوفيا فتاة روسيّة من أب روسي وأمّ شاميّة. قلتُ:

- ليس مهماً كيف أكون .. أنتِ كيفك؟ أين كنتِ كل هذه السنين؟

- كما ترى، يا صديقي، لقد اخترتُ حياةً هادئة بعدما رميتُ بنفسي من الجسر.

- انتحرتِ؟!

- نعم، أو يمكنكَ القول بأنّي أبدلتُ حياتي. وأنتَ، كيف أمسيتَ؟

- كما ترَين، يا عزيزتي، لقد أمسيتُ أكثر همّاً.

- امممم، يبدو أنّك ما تزال وحيداً.

- أجل.

قفزتْ صوفيا في الهواء قفزة لولبيّة، ثمّ هبطتْ بسرعة فائقة، وفي طريقها نحو الماء جذبتْ يدي بقوّة، وأنزلتْني معها إلى القاع. كنتُ أغلق أنفي بيدي خشية الاختناق، وحين وصلنا القاع، صفعتْني بالذَّنَب، فسقطتُ مغشيّاً. استفقتُ بعد لحظات، لأجدني قادراً على التّنفّس والكلام تحت الماء. لقد بتُّ أفهم لغة السمك. ما هذا؟! ماذا يجري لي؟!

أدخلتْني صوفيا قبواً واسعاً مَكسوّاً بالذهب، ومُزيّناً باللؤلؤ، وقالتْ هذا بيتكَ. ثمّ خبطتْ رأسي بعصا سِحْريّة صغيرة، فنبتتْ لي زعانف كبيرة، وظهرتْ لي خياشيم كثيرة.

يا الله! لقد تحوّلتُ إلى كائن بَحْريّ، أتحرّك بحُرّيّة، لم أنلها على اليابسة.

- ما هذا، يا صوفيا؟! مَ الذي يجري، بحقّ السماء؟!

- لا شيء، يا نزار، لقد حوّلتُكَ إلى سمكة.

- لكنّي إنسان.

وماذا جنيتَ من الإنسانية سوى الأحزان. كُنْ سمكة، كي تنسى أحزانكَ، يا صديقي، السمك قصير الذاكرة.

أمرتْني بعد ذلك بالصمت حالما تعود. ذهبتْ إلى متجر قريب، ابتاعتْ شاشة عرض عملاقة. علّقتْها على الجدار أمامي، وناولتْني جهاز التّحكّم. ضغطتُ على زرّ التشغيل، فظهرتْ سمكة أنيقة، تقرأ أخبار السمك في البحار والمحيطات. كانتْ أخباراً لطيفة، ليس فيها ما يبعث على الهمّ والغمّ. كائنات منشغلة في الجري خلف لقمة العيش. لا حروب ولا غزوات ولا ديمقراطية زائفة. مخلوقات سعيدة وبيئة آمنة. حتّى مشاهد الافتراس القليلة التي شاهدتُها، كنتُ قد نسيتُها لمجرّد تحويل القناة. منظر القرش وهو يلتهم سمكة سلمون صغيرة لم يثوِ في ذاكرتي طويلاً. لا بأس بالأحزان حين يكون أمدها قصيراً في الذاكرة.

انتهتْ نشرة أخبار السمك، أخرجتُ هاتفي النقّال، كي أنشر حكايتي على موقع فيسبوك، فقالتْ صوفيا:

- انتظر، ماذا تفعل؟

- أنشر حكايتي.

- لماذا؟

- لكي يقرأها أصدقائي الحزانى، ويخوضوا التجربة.

حينذاك أغمضتْ صوفيا عينَيْها، وابتسمتْ ابتهاجاً، ثمّ سألتْ:

- ماذا سيكون عنوان الحكاية، يا نزار؟

- كُنْ سمكة.

كلبٌ نائم

كنتُ عائداً من العمل، مُثقَلاً بالهمّ والغمّ. وفي الطريق، رأيتُ كلباً نائماً تحت ظل شجرة. رفستُهُ برجلي. استيقظ. هجم عليّ، فطرحني أرضاً. اعتلى صدري. أمسك بياقتي. قال والشرر يتطاير من عينَيْه: "مُستهترٌ أنت؟!" قلتُ لا. قال: "ما بكَ، إذن؟!" أمسكتُ برجله، توسّلتُه أن يُطلق ياقتي. قلتُ أرجوكَ، ابتعدْ، وسأحكي لكَ ما بي، شرطَ أن تعطيني الأمان. هداه الله، فاستجاب لطلبي. حرّرني، وضرب على صدري ضربة انتصار خفيفة، كما يفعل الشقاوة حين يصفح عن الضحيّة، ثمّ قال هات ما عندكَ .. نوِّرنا.

قلتُ: يا كلبُ، أنا مهاجرٌ كما ترى، لكنّي ابن خير، كنتُ ذات يوم أعيش في بيت كبير. هو بيت جدّي لأبي. كان بيتاً عامراً، له إيوان شاهق، ومضافة طويلة. كانت الزخارف الكوفيّة تطرّز الجدران والأبواب، والكاشان مبذولاً في الحجرات تحت أقدامنا. كان للبيت سطح، وعلى السطح تنّور طينيّ، توجره أمّي خمس مرّات في اليوم، بعدد صلوات أبي. وكان قرب التّنّور قنّ، فيه عشرون دجاجة، وديك صيّاح. أما الحمام، فكان بلا عدد، يقف على شرفة السطح، يأكل ويذرق. يطير متى يشاء، ويحطّ متى يشاء. كان ماء الدار حلواً، وشمسها دافئة، نستظلّ منها تحت فيء نخلة شاهقة، كنّا نطلق عليها لقب "العيطة" كناية عن طولها.

قاطعني الكلب: "انجزْ."

قلتُ: حسناً، سوف لن أطيل عليكَ الحكاية، ذات يوم كنتُ نائماً تحت ظل "العيطة" وإذا بي أرى في المنام دودةً تزحف نحوي. كانتْ تكنّي نفسها بـ "أمّ الهوا". قالتْ بأنّ بيت جدّي خانق، وحياتي بحاجة إلى هواء، فاخترقتْ جسدي من مكانٍ ما بغية أن تضخّ المزيد من الأوكسجين إلى قلبي. حينذاك استيقظتُ مرعوباً، هرولتُ إلى السطح، كسرتُ تنّور أمّي، نششتُ الحمامات من الشرفة، وفتحتُ قنّ الدجاجات، فتطافرن على سطوح الجيران. لا أدري ما الذي فعلتْه بي أمّ الهوا حين اخترقتْ جسدي، لكنّي شعرتُ حينها بطاقة هائلة للتدمير، ورغبة كبيرة في التكسير، فكان آخر ما فعلتُه يومها أن حرقتُ نخلتنا "العيطة".

نعم، نعم، أضرمتُ النار فيها، وهربتُ خوفاً من بطش أبي. لقد رأيتُ الدخان يتصاعد من الدار، وأنا أركض باتّجاه الجسر الخشبي الوحيد في القرية طمعاً في النجاة.

تأثّر الكلب لحكايتي، وقال: "أكملْ، أكملْ، ماذا جرى بعد ذلك؟"

قلتُ: لا شيء، كما ترى، ما أزال حيّاً، لكنّ لوني صار شاحباً من الغمّ والسهر. قال: "مالي بلونكَ أنا؟! أخبرني، لمَ رفستَني؟!"

قلتُ: عندما رأيتُكَ، يا عزيزي، تنام بسكينة تحت ظل شجرة طويلة، خفتُ أن تخترق جسدكَ أمّ الهوا، فيصعد الأوكسجين في عروقكَ، وتحرق بيت أهلكَ. والآن، دعني أذهب، أرجوكَ.

"هيّا، اذهبْ، ولا تكرّرها مرّة أخرى." قال الكلب، ثمّ عاد لغفوته.

وجه النحس

في صباح الرابع من أيلول ١٩٨٠، وبقرار من القابلة أمّ توفيق، غادر المسكين رحم أمّه. لقد سمع القابلة تهتف "صيحي علي"، وكانت الأمّ تصيح كذلك حتّى كاد يقتلها الطَّلْق.

في الناصرية، اعتادت النسوة أن يندبنَ عليّاً عند الطَّلْق، لكن نَدْب الأمّ ذاك اليوم لم يكن نافعاً، فقد تعسّرت الولادة، وكادتْ أن تفقد حياتها. وبعد نهار وليلَتَيْن كاملَتَيْن، وبمشقّة كبيرة، دلقتْ وليدها إلى الدنيا. لم يكن لينوي الخروج. كان لاطشاً في ظلمة رحمها، لعلْمه بأنّ ذلك الصباح سيُكتَب في التاريخ على أنه الصباح الأول للحرب العراقية الإيرانية، وسيُتّهم فيما بعد بوجه النحس.

وجه النحس، رغم أنفه، أخرجتْه القابلة إلى الدنيا. حينئذ لم يكن أمامه سوى الصمت وعدم البكاء أملاً بالخلاص، فالمتعارَف عليه في مهنة توليد النساء أن الطفل الذي لا يبكي عند الولادة هو طفل ميت، مصيره سطل القمامة. لقد تظاهر بالموت طمعاً بالقمامة. كان يعلم بأنها ستخنقه، ويموت، لكنه، ومنذ يومه الأول، آمن بأنّ الموت في القمامة خير من الحياة في الحرب. لقد كان مرعوباً من فكرة العيش في زمن الحرب، خائفاً من الفَقْد والحزن واللوعة. وفوق هذا وذاك، كان يخشى أن يُوسَم بالطفل النحس، الطفل الذي أتى بالحرب على أهله.

أجاد دور الجنين الميّت، وأوشك اليأس أن يدبّ في عروق أمّه، لكن القابلة أمّ توفيق صارتْ تضرب بقوّة على مؤخّرته حتّى انفجر بالبكاء. كانت اللعينة تمسكه من قَدَمَيْه بوَضْع شاقوليّ، وتخفق بيدها على مؤخّرته الصغيرة بلا رحمة. ضرباتها القاسية تلك كانت السبب أيضاً وراء تسميته فيما بعد بـ "أبو طيز الأسود".

صرخ المسكين، فهلهلت النسوة. وحين سمع الأب الهلاهل، أخرج ثلاثة دنانير خضراء، أجرة عمل القابلة. دسّ الدنانير في يدها، وأوصاها أن تزورهم، لتطمئنّ على سلامة الأمّ وابنها. عندما رأى الطفل أباه يدسّ الدنانير الثلاثة في يد القابلة، تمتم في سرّه: "كم هو زهيد ثمن وصولي إلى الدنيا! ثلاثة دنانير فقط؟! يا للحسرة!" ثمّ ألقم ثدي أمّه، ونام. وفي الصباح، ذهب الأب، واستصدر ورقة بيان ولادة باسم: "جيفارا عبد الباري عليوي".

- شنو سمّيته؟ سألت الأمّ.

- جيفارا، أجاب الأب.

- شِنو؟

- جيفارا، جيفارا .. ما تعرفين جيفارا؟

- لا والله، يا عبد، منين هذا جيفارا؟

- من البطحة.

لقد اختار الأب في لحظة تحدٍّ اسماً ثوريّاً لابنه البِكْر، ولكنه، رغم ذلك، سيبقى يُلقّبه بـ وجه النحس، لأنه جاء في اليوم الأول للحرب. أما الأمّ، فلم تستسغ "جيفارا" ولم تقتنع بأنّه من ناحية البطحة الواقعة شمال الناصرية، لذلك أطلقتْ عليه اسماً آخر، صالحاً للاستعمال البيتي، "سعدون" لشبه

بينه وبين خاله الكبير سعدون. أما إذا أرادتْ توبيخيه، وغالباً ما تفعل، فتكنّيه بـ "أبو طيز الأسود" للسبب الآنف.

ذات يوم، وكان جيفارا في السابعة من عمره، خلع ثيابه أمام المرآة، ليتأكد إنْ كانتْ مؤخّرته حقاً سوداء كما تصفها أمّه، أم أنها مجرد فِرية، فحمد الله كثيراً حين وجد لونها طبيعياً، لكن كنيته استمرّتْ كذلك.

في الواقع هو أيضاً لا يحبّ اسمه، ولا يعرف معناه. يشعر بأنه غريب عنه. أبوه عبد الباري وأمّه حمدية، فمن أين جاء جيفارا؟! ثمّ إنّ زملاءه في المدرسة والشارع كانوا يسخرون منه، إذ ينادي عليه بعضهم "چرچف"، والآخر يدعوه " چفچير"، بينما لا يطيقه معلّم الدِّين، الأستاذ عليّ، لأنّ جيفارا اسم لا يليق سوى بالملاحدة والزناديق على حدّ رأيه. أما الحسنة الوحيدة لهذا الاسم الغريب، فإنه كان يثير إعجاب جارتهم الحلوة، رشا. كانتْ تتغنّج به حين يتغازلان فوق السطح "شلونك جوجو؟" تسلّم عليه، فيطير من الفرح، ويشعر بانتصاب فوري بين فخذَيْه، ويردّ التحيّة "هلو شوشو". حتّى إنّه أمسى ملازماً للسطح، وعاشقاً لتربية الحمام. عشرون حمامة في قنّ كبير على السطح، يصفّق لهنّ في الهواء، فتعرف رشا بأنّه فوق السطح، لتصعد بحجّة نشر الغسيل هناك، وتبدأ فصول الغرام.

ذات يوم صفّق جيفارا حتّى كلّتْ يداه، ولم تصعد رشا إلى السطح. سمع في الليل بأن الأمن قد أمسكوا بأبيها بتهمة الانتماء إلى حزب معارض. وبعد ستّة أشهر، طَرَقَ مختار المحلّة بابهم، ليُبلغهم بخبر إعدامه. ومنذ تلك الساعة، لم يعاود جيفارا الصعود إلى السطح، وطلب من أمّه أن تبيع الحمامات، وقد فعلتْ.

لقد تيقّن جيفارا بعد هبوطه من السطح بأنّه طفل منحوس، وأنّه

إذا حضر، حضرت المصائب معه. غادر مقاعد الدراسة مبكراً، وعمل مساعداً لدى حمزة السائق. كان هذا الأخير يملك باصاً طويلاً، يعمل على طريق البصرة، فكانتْ مهمة جيفارا جَمْعَ الأجرة من الراكبين، وغسل الباص وتنظيفه. لكنه حالما شرع في الوظيفة، بدأ صاحب الباص بالشكوى من تكرار العطل وكثرة المشاكل. كل يوم كان يزور الميكانيكي في ورشته، وينفق المال من أجل إصلاح الباص. لا السائق ولا الميكانيكي يعرفان السّرّ وراء ذلك. جيفارا وحده مَنْ كان يعرف، لكنه آثر الصمت، كي لا ينقطع رزقه.

استمرّ النحس يلاحق جيفارا حتّى كبر، وصار عليه أن يراجع دائرة التجنيد للالتحاق بالخدمة الإلزامية. لكنه لم يفعل. لقد أهمل الأمر، وطلب من حمزة السائق أن يدبّر له هويّة مضروبة، كي يستمرّ في العمل، وإعانة أسرته. استصدر له هوية باسم "مهند حاتم مدلول" إمعاناً في التشويش على المفارز، كون اسم جيفاراً مطلوباً لديهم. لكن النحس نصب نقطة تفتيش مؤقّتة على الطريق، وجعلها تبحث عن مطلوب للاستخبارات العسكريّة، يحمل ذلك الاسم الجديد "مهند حاتم مدلول"!

نام جيفارا في السجن عاماً كاملاً قبل أن يُحكَم عليه بالإعدام بتُهمة التخابر مع الأجنبيّ. صرخ في غرف التحقيق ألف مرّة بأنّ اسمه جيفارا، وليس مهنداً، وأنه متخلّف عن الخدمة الإلزامية، والهوية التي يحملها مضروبة، لكنهم لم يستمعوا إليه. ليس لأنهم مقتنعون تماماً بأنّه كاذب، ولا لأنّ اشتباه الأسماء بات أمراً غريباً هناك، بل لأنه شخص منحوس. أُودع بعد ذلك في قسم الخاصّة في سجن (أبو غريب) لسبعين يوماً، أُلبس خلالهنّ البدلة الحمراء بانتظار تنفيذ حكم الإعدام.

وفي صبيحة العاشر من تموز ١٩٩٩ حضر إلى الزنزانة ضابط برتبة عقيد، واثنان من حَرَس السجن، والجلّاد الذي كان يضع لثاماً على وجهه.

كان بصحبتهم طبيبٌ وشيخ من وزارة الأوقاف، يلفّ رأسه بعمامة بيضاء. أخرجه الشرطيان من الزنزانة، واقتاداه نحو المقصلة. كانتْ خشبةٌ بطبقَتَيْن متلاصقَتَيْن، تشبهان المسرح الصغير. يتدلى من فوقهما حبل مثل ثعبان غليظ. أوقفاه على الخشبة، وبدأ الشيخ بتلاوة آيات من القرآن، ثمّ أمره بالتّشهّد.

- قولْ، يا ابني: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

- .....

لم يقدر على فَتْح فمه، كان يرتجف من رأسه حتّى أخمص قَدَمه.

- قولْ، يا ابني، قولْ.

- شششأقول؟

- قلْ أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله.

نطق الشهادَتَيْن بصعوبة بالغة، فأومأ العقيد بالتنفيذ. ألبس الجلّاد كيساً أسود برأسه، ولفّ المشنقة حول رقبته. شدّ وثاقها، وابتعد قليلاً إلى الخلف. أمسك بعتلة حديدية، ثمّ قال "بسم الله"، وسحبها بقوّة، فانفتحت الخشبة، وتدلّى جيڤارا في الهواء. رفس رفسَتَيْن، تذكّر خلالهما وجه الداية أمّ فاروق ووجه أمّه وأبيه وأخوته اليتامى ورشا الحلوة وحمزة الطويل والجندي في نقطة التفتيش، ثمّ همد.

سُلّمت الجثّة للخال سعدون، فوضعها في تابوت خشبي، على ظهر سيّارة أجرة، وتوجّه به إلى المقبرة. أربع مرّات تعطّلت السّيّارة في الطريق. كان الخال يستمع للسائق، وهو يشتم "المرحوم"، ولكنه لم يعترض، لأنه يعرف بأنّ ابن أخته منحوس حقاً، وربمّا يستحقّ الشتيمة. وصلوا المقبرة

ليلاً. أنزل السائق التابوت، وعاد دون أن ينتظر. بحث الخال عن حفّار قبور، فلم يجد إلا واحداً، وكان مخموراً، فاضطُرّ أن يتولى المهمة بنفسه. حفر له قبراً ضيّقاً، وحشره فيه. قبل أن يخرج من الحفرة، لدغه عقرب برجله، فصار يصرخ ويشتم تلك الساعة التي صار فيها خالاً لـ جيڤارا. حينئذٍ ناوله الدفّان المخمور بطل العَرَق، قال: "هاك اشربْ بثواب المرحوم." فارتشف الخال حتّى نسي الألم، وعاد لإكمال الدفن. حثا التراب على القبر برجله، ثمّ وضع عليه شاهداً، ومضى يترنّح. لقد كتب على الشاهد:

- هنا يرقد وجه النحس.

شيطان الضحك

لا راحةَ له في تلك المدينة. ورغم أنها مدينة نائية، تحتضنها الجبال من أطرافها الأربعة إلا أنّها لم توفّر له العزلة التي يحلم فيها، فكان كلّما غفتْ عينُه، طَرَقَ أحدُهم البابَ. لا يدري كيف يشمّ سكّان المدينة رائحته مثل كلاب مدرّبة! ذات يوم كان مسطولاً جرّاء حبّة دواء، تناولها في الليل، فغفى على نفسه في الصالة. كانتْ غفوة قصيرة على الأريكة المغلّفة بالفرو، لم تستغرق ستّ دقائق، إذ أيقظه كالعادة طَرْقُ باب عنيف. نهض متأفّفاً؛ "ماذا تريدون منّي، يا أولاد الكلب؟" ثمّ فرك عينَيْه، ومشى نحو الباب بخطوات مُثقَلَة. فتحها، فكانتْ شرطيّة غليظة، تمسك بعصا كهربائية، وجامعة من الحديد. وبلا مقدّمات، ضربتْه على كتفه، فتأوّه بصوت متقطّع، ثمّ سقط على الأرض. قيّدتْه بالجامعة حينذاك، وأصدرتْ أمرها لشرطيّ فارع الطول، كان يرافقها، بأن يَسحلَ المتّهمَ اللعينَ.

سَحَلَهُ الشرطي، ورمى به داخل الصندوق الخلفي للسّيّارة، ثمّ أدار المحرّك، وسار مسرعاً نحو مكتب البوليس الرئيس. كان أهل المدينة قد تجمهروا هناك بانتظار رؤية الإرهابي الذي سيُؤتَى به، كما وعد بذلك مدير الشرطة في مؤتمر صحفي، بُثّ عبر القناة الرسمية. توقّفت السّيّارة أمام المكتب. أمسك الشرطي الفارع بياقته، وأخرجه. كان مثيراً للشفقة، والدماء تجري من فمه. حزّ في نفسه أنّ الشرطي كان يسحلُ به، والشعب يبصقُ عليه، ويهتفُ: إرهابي، إرهابي، إرهابي.

شاهد، وهو في الحالة تلك، طفلةً خائفة، تمسك بيد أمّها، وتسأل:

- ماما، هذا خروف؟ فتجيبها الأمّ الحريصة:

- لا، ماما، هذا إرهابي حقير، ارجعي، لا ينفجر.

كان من بين المتجمهرين عجوز تمضغ علكة، اعترضت الطريق، ونظرتْ له بشزر، ثمّ بصقت العلكة في وجهه. جاء مع العلكة طقم أسنانها. اقتربتْ لتخلّص الطقم من جبهته، همستْ في أذنه: "اليوم يشقّون تيزك، يا كلب."

رُمي في زنزانة رديئة التهوية. جُرّد من ثيابه، وعُلّق بمروحة تدور في السقف، فبدأ فصل الدوران والضحك. كان يدور، ويدور، ويدور، ويضحك. هتفت المحقّقة: "أنزلْه." فأنزله الشرطي.

"ما الذي يُضحكَ، يا كلب؟" صرخت المحقّقة، لكنه لم يُجبْ. كان غير قادر على التّوقّف عن الضحك. فصارتْ تركله، وهو يكركر مثل طفل رضيع. شتمتْه بعد ذلك، ولم يزل يضحك. بصقتْ في وجهه. بالتْ عليه. وضعتْه في حوض ماء بارد .. ولم يزل يضحك. في النهاية، أشعلتْ سيجارة، وأطفأتْها في قفاه، ثمّ صعقتْه بشحنة كهرباء سخيّة، لكنْ، بلا جدوى أيضاً. جاري الضحك.

خلاص، لقد تمكّن منّه شيطان الضحك، وغدا في عالم آخر، فاستسلمت المحقّقة، وغادرت الزنزانة. وبعد ساعَتَيْن، عادتْ وبيدها بُطل زجاجيّ، قرّرتْ أن تدسّه في إسته، لعلّه يُمسك عن الضحك. لكنّه كان ساكتاً حين وصلتْ. لقد غادرتْه هستيريا الضحك، وأمسى مثل حمل وديع.

سألتْه المحقّقة ملوّحة بالعصا حينذاك:

- هل لكَ أن تجيبني، على ماذا كنتَ تضحك؟

- أضحك على العجوز أمّ طقم الأسنان.

- ما بها؟

- كانتْ تقول لي: اليوم يشقّون تيزك!

- وما الذي يُضحك في ذلك؟!

- الذي يُضحك هو أنّ هذه العبارة التي همستْ بها العجوز في أذني هي ذاتها التي قالها لي ضابط التحقيق ذات يوم في العراق، يبدو أنّ العراقي أينما ذهب، إسته مشقوق.

- أششششش، اخرسْ.

- خرسنا.

همّ الشرطيّ برَفْعه عن الأرض، وتعليقه من جديد، لكنّ المحقّقة أمرتْه بالتّأنّي، ثمّ قالتْ:

- ماذا قلتَ؟! عراقيّ؟!

- نعم، عراقيّ، ما الغريب في الأمر؟!

حكّتْ فروة رأسها. أدارتْ عينَيْها في جفنَيْهما دورة كاملة، ثمّ ذهبتْ خلف المكتب. بحثتْ في الأوراق المبعثرة أمامها. تناولتْ واحدة. قرأتْها، فضربتْ بيدها على جبهتها، وهتفتْ: "يا إلهي، هذا ليس هو الشخص المطلوب، لقد مسحنا بكرامته الأرض، ولم يكن مذنباً."

فهم بأنّ الأمر كان محض تشابه في الأسماء، لا أكثر؛ متّهم من أصول شرقيّة، يحمل الاسم ذاته، كان عليهم جَلْبه بدلاً عنه!

اعتذرت المحقّقة الغليظة في الآخر، ثمّ أمرت الحَرَس أن يُعيدوا عليه ثيابه، ويغسلوا وجهه من الدماء، ففعلوا بانصياع تامّ. أحضرتْ له بعد ذلك سندويتش جبنة وعلبة كوكا كولا، وطلبتْ سيّارة أجرة، تُعيده إلى البيت مع ورقة اعتذار وباقة ورد. دفع السندويتش كاملاً في فمه، وشرب علبة الكوكا كولا، وعاوده شيطان الضحك من جديد.

لقيط

خرقة بيضاء قرب مزبلة، كان ينام فيها رضيع، يرفع إصبعه الأوسط مثل سارية. سلمان اللقيط الذي نشأ في ملجأ رديء، رأى فيه ما رأى، أُطلق في الشارع بعد أول شعرة نبتتْ في شارِبَيْه. اشتغل عتّالاً في معمل للعَرَق. كانتْ صناعة العَرَق منتشرة يومذاك، وكانتْ مهمته حمل الصناديق الملأى بقناني العَرَق إلى المتاجر والأسواق، والعودة بالفارغ منها إلى المعمل. لم تكن مهمة شاقّة بالطبع سوى أنّ الوارد لم يكن كافياً لدَفْع أجرة الفندق. اشتكى غير مرّة لصاحب المعمل البخيل مطالباً بزيادة الأجر، لكنّ الأخير اقترح عليه بدل ذلك أن يبيتَ في المعمل ليلاً شرط ألا يقترب لقناني العَرَق الجاهزة.

- بالك تلمس البْطالة، قال صاحب المعمل.

- صار استادي، أجاب سلْمان.

في الليل، مدّ سلمان فراشه بين تلال الصناديق الجاهزة محاولاً النوم، لكنّ عينه لم تقر، ولم تسترح، فمنظر الصناديق ورائحة العَرَق التي تعبّئ المكان طردتْ من عينَيْه النوم. نهض من الفراش حينئذٍ. تناول واحدةً من القناني، وسكبها في جوفه. كان غشيماً لا يعرف كيف يُشرَب العَرَق، فاحترقتْ معدته، وصار يتقيّأ. في الصباح، اكتشف صاحب المعمل ذلك، فأعاده إلى الشارع.

في التسعينيّات، كان الجوع يحيق بالمدينة. وكان الناس يبيعون آثاث بيوتهم من أجل الخبز. انتشرتْ آنذاك تجارة البالة والثياب المعاد صبغها، وملأتْ عربات العتيق والسكراب الأرصفة، وكان لسوق الجمعة الفضل في تصريف ذلك كله. جرّب سلمان أن يكون واحداً من باعة السكراب، لكنه لم يُفلح. الفقراء بلا رأس مال. ماذا يفعل إذاً؟!

واقعاً، أنا لا أدري ماذا يفعل، لكنّي علمتُ فيما بعد بأنّ الحظّ قد ابتسم لسلمان أخيراً، وصار حفّار قبور. كان أحدهم قد اقترح عليه المهنة، واصطحبه إلى المقبرة. هناك تعلّم مهنة حَفْر القبور، ودَفْن الموتى التي سرعان ما أتقنها، بل عثر فيها على ما ينقصه، المتعة.

نعم، اكتشف سلمان بأنّ حَفْر القبور يجعله سعيداً. كان يبتسم حين يدسّ أحدهم في اللحد، وكان يهمس في أذنه قبل أن يخرج: "استمتعْ بالتراب، يا ابن القحبة." ثمّ يدفن القبر، وينصرف.

حاقداً كان سلمان، يكره الناس، ويستمتع في دَفْنهم. كان يحمل في جيب سترته قنّينة معدنية، يحرص على ملئها بالعَرَق، فهو لا يحفر قبراً دون أن يشرب. الشرب قبل الحفر، هكذا كان يقول لزملائه في العمل، وكانوا يشاركونه الرأي، فحَفْر القبور مهنة فنطازية، تستدعي ألا تكون جاداً فيما تفعل. ماذا يعني أن تشقّ الأرض، وتلقمها واحداً من بني جنسكَ؟!

على مدى عشرين عاماً، مدة عمله حفّاراً للقبور، لم يدع سلمان ميّتاً إلا ونال منه. كان يدسّ أصبعه في مؤخّرات الموتى، ويتفل عليهم، ويكيل لأمّهاتهم الشتائم. شرب ذات ليلة قنّينة عَرَق كاملة، فسكر. خلع ثيابه، وصعد فوق قبرٍ، عليه صورة أفندي يعتمر سدارة. كان واحداً من تجّار المدينة الكبار، مات قبل سنين طويلة. بال سلمان على قبره، وهو يهتف: "أنا سلمان النغل، أبول عليكم واحد واحد."

وفي اللحظة تلك، مرّتْ دوريّة للأمن، كانتْ تبحث عن هاربين ومطلوبين للدولة بين أزقّة المقبرة وتفرّعاتها المتشابكة، فشاهدوا سلمان بذلك المنظر، وألقوا القبض عليه. "وين ماخذيني خَوات القحبة؟" شتمهم دون وعيه، فكان الجواب مزيداً من الضرب والتنكيل. وبعد ليلتَيْن من الحجز الانفرادي، اقتيد إلى غرفة التحقيق. كان يقف ضمن مجموعة من المتّهمين العُراة، وهو يسعل. العيون معصوبة، والأيادي مقيّدة إلى الخلف، يُعرَضون واحداً واحداً على ضابط التحقيق. كان سلمان مرعوباً، وهو يستمع لصراخهم تحت التعذيب حتّى إنه كاد أن يُغمى عليه من الخوف. لا ضير، فالرعب في غرف التحقيق ذاك الزمان كان أكبر من أن يُحتمَل.

نادى عليه المحقّق، ليوجّه له سؤالاً:

- شنو علاقتك بـ حمزة السّيّد؟

- منو حمزة السّيّد؟ ردّ سلمان مستغرباً، فانهال عليه المحقّق بالرَّكْل والضرب، ثمّ أردف:

- شنو علاقتك بـ حمزة السّيّد، زعيم التنظيم؟

- تنظيم؟!! هتف مندهشاً لغرابة الأسماء وفداحة التهمة، وكان كلّما طلب التوضيح، زاد عليه الضرب. سالت الدماء من فمه وأنفه، وكاد قلبه أن يسكت من شدة التعذيب، فهو ضعيف البنية، هزيل لا يحتمل الصعق والضرب والرَّكْل. زاد الطينَ بلةً أنه مرض في السجن بسبب الجوع والبرد، فلم يبقَ أمامه حينذاك إلا أن يشرع بالصراخ:

- أنا سلمان، أنا سلمان، أنا سلمان ..

- منو هذا الحمار؟ استفهم المحقّق من العساكر حوله، فردّ سلمان:

- نغل.

- شنو؟ قال المحقّق.

- نغل، أنا سلمان النغل، أبول عليكم واحد واحد، قال بصوت متقطّع، ثمّ بال على نفسه، ومات.

بريد عزرائيل

منذ يومَيْن، وأنا أصارع سكرات الموت. لقد شربتُ سهواً إبريق نفط بأكمله. كنتُ قد ظننتُه شراب النومي الذي أحبّه، فكرعتُه دفعةً واحدة، واحترقتْ أحشائي. حينها زارني عزرائيل قابضاً، فسألتُه، إذ لاح خياله قرب السرير، عمّا يريد، فردّ مشفقاً: "قد أزِفَ الرحيل."

آلمني ردّ عزرائيل، وعلمتُ حينذاك بأنّ حياتي بلغتْ سطرها الأخير. رجوتُه حينئذٍ أن يُمهلني حتّى أُودّع أطفالي. كانوا يتحلّقون حولي كأفراخ الدجاج. كان ميدو يجلس قرب رأسي، يُمسك منديلاً، يمسح قطرات العَرَق عن جبيني وهو يبكي، بينما تجلس سارة عند قَدَمَيّ، تعصّرهما بيدَيْها الرقيقَتَيْن. كانتْ تهمس لأخيها في الهواء:

- ميدو، كافي دموع، بابا يحبنا، ما يتركنا وحدنا.

أما أنا، فكنتُ أستمع لما تقول تلك الصغيرة النبيهة، لكني لم أقوَ على تطمينها، فلساني قد انعقد، وعيناي قد انشغلتا بالتحديق في وجه عزرائيل الغريب. بيني وبينكم، شاهدتُه هو الآخر يبكي، فتجرّأتُ، وسألتُه عمّا يُبكيه، فقال:

- لستَ وحدكَ مَنْ أبكيه. كلّ العراقيين حين أزورُهم أبكي لحالهم.

قلتُ مندهشاً:

- لمَ؟

فقال معلّلاً:

- لأن لي عِشرةً معهم أكثر من غيرهم. مساكين، أنتم أكثر شعوب الأرض تعاملتُ معهم بالجملة، لا بالمفرد. لقد سلّط الله عليكم السرسريّة والسيبنديّة الذين سوّدوا حياتكم، ومع ذلك، يبعثني إليكم باستمرار.

فاجأني عذر عزرائيل، فقلتُ:

- إذنْ، دعكَ منّا، واقبضْ على السرسريّة والسيبنديّة الذين كانوا سبباً في تعاستنا.

تبدّلتْ ملامح عزرائيل، وقال بغضب:

- ويحكَ، يا فتى، تريد منّي أن أخالف أمر مولاي؟!

فقلتُ بانكسار وعتب:

- كلا وحاشى، ولكنْ، ما بال مولاك لا يُشفق لحالنا؟! ألهذا الحدّ أمسينا لا نستحقّ الشّفَقة؟!

سكت عزرائيل حينذاك. أخذ شهيقاً طويلاً، ثمّ زفر إلى الأعلى زفرةً، كادتْ تخلع سقف البيت، وقال:

- اسمعْ لَك، الظاهر إنتَ فد واحد ثرثار، وأنا وقتي ضيّق، غمّض عيونكْ، وخلّصني.

أغمضتُ عينَيّ خوفاً من سطوته حينئذٍ، وسلّمتُ أمري بيده. لكنّي، وقبل أن يبدأ عزرائيل عمله، فتحتُ عيناً واحدة، وسألتُه:

- عمّو عزرائيل، فد سؤال بلا زحمة.

- اسألْ، وخلّصني.

- العراقيين بعد كل اللي مرّ عليهم، يروحون للنار؟ لو بيها مجال؟

لم يجبْني هذه المرّة، كان مشغولاً بمكالمة طارئة من الأعلى. تركني، وطار إلى لندن. قال بأنّ واحداً من السرسريّة قد فطس أخيراً في إحدى المستشفيات هناك. حينئذٍ، فتحتُ كلتا عينيّ، لأجدني غارقاً في فراشي من الحُمّى، وفراخي ما يزالون نائمين. أعدتُ الغطاء على وجهي، ونمتُ.

حارس شخصي

ذات صيف بصري يشبه جهنّم، استأجروا غرفة في فندق السعادة. كان فندقاً متهالكاً، يتّكئ على عمارة آيلة للسقوط في زقاق ضيّق من أزقّة العشّار.

لم تكن الفنادق يومذاك محجوزة للسائحين، فمَنْ يسيح في البصرة صيفاً والحرارة فيها تتعدّى الخمسين مئوي؟! ولكنهم كانوا يبحثون عن فندق يناسب ستّة مفلسين، قدموا من العاصمة لأداء امتحانات الدور الثاني. شلّة من الكسالى، لم ينجحوا في الدور الأول كالعادة، فشدّوا الرحال في تموز اللاهب إلى البصرة. كان لزاماً عليهم أن يجدوا فندقاً، يليق بمقامهم الواطئ. الفقر يهبط بمقام الإنسان إلى ما دون الحضيض أحياناً. لم تكن في ذلك الزمان أقسام داخلية تُؤويهم، ولا تسألوا عن السبب، فسنوات الحصار كانتْ أضيق على العراقيين من خرم الباب. لقد جوّعهم أولاد الكلب حتّى اضطُروا إلى أكل النخالة، وطحن الشعير.

كان على أولائك الجحوش الستّة أن يجدوا فندقاً رخيصاً يُؤويهم ريثما يُنجزون المهمة. بحثوا كثيراً حتّى أوصلتْهم أقدامهم إلى ذلك الزقاق الضّيّق. كان على باب الزقاق رجل أصلع بأنف كبير، وبطن منتفخ. سأله هيثم:

- عَمّو، بروح أبوك، ماكو فندق رخيص قريب مِنّا؟

- إي بويَه هذا خوش فندق.

أشار الرجل بيده إلى فندق نتن، يقوده سِكّيرٌ نتن. استأجروا غرفة في الطابق الثاني. كان الطابق الأول محجوزاً لسعديّة القوّادة وفرقتها. وضعوا حقائبهم في الخزانة الجرباء، وانخمدوا.

وحين انتصف الليل، بدأ الحفل. لم يكن حفلاً راقصاً بالطبع، بل حفل فئران. كان فندق السعادة مليئاً بالفئران والجرذان والصراصر المتناسلة، وعندما سمعتْ بعض الفئران الصغيرة صوت الشخير، خرجتْ من جحورها، وبدأتْ بالرقص.

بين حلم وعلم شاهد هيثم فأراً يهزّ ذيله فوق صدره، فقفز مرعوباً، ثمّ أمسك بنعل قريب من رأسه. كان نعلاً مصنوعاً من اللدائن المعاد تدويرها، قد نسيه أحد النزلاء قبل مغادرة الفندق. حمل النعل، وهرول خلف الفأر اللعوب الذي صار يراوغ من ركن إلى آخر. أحدث جلبة، استيقظ على إثرها نزلاء الفندق. كان رفاق هيثم عند الباب يهتفون باسمه، ويمسكون الطريق على الفأر، كي لا يفلت. حينذاك صعد صاحب الفندق ومعه سعدية القوّادة. كانتْ عائدة للتّوّ من عملها في ملهى الغزلان الشهير. قهقهتْ حين رأتْ هيثم عارياً، يطارد باهتمام فأراً صغيراً داخل الغرفة. ثمّ نادتْ عليه باللهجة البغدادية: "نْزول عليك." فسعدية قوّادة بغداديّة نزحتْ نحو البصرة، لتلقّط رزقها هناك.

وفي الغد، بعثتْ خلفه، فحضر أمامها بكامل أناقته.

- نعم، خالة، تفضّلي.

- خالة؟ هاهاها حلوة هاي خالة، مو هازّة كاروك.

- ....

- اسمعْ لَكْ، شنو رأيك تشتغل عندي بالملهى؟

- ملهى؟! مو عيب؟! أنا طالب جامعي.

- هاهاها، اسم الله على الجامعي، لَكْ إنتَ ما سامع "خِرّيج مِرّيج، كلها تشرب بالإبريج؟"، وهو مثل كان متداولاً آنذاك للتهكّم من الشهادة الجماعية التي لا تُسمن، ولا تُغني من جوع، وما تزال كذلك!

- لا، ما سامع.

- اترك الدراسة، وتعال اشتغلْ عندي، أملي جيبكْ فلوس.

- شنو أشتغل؟

- حارس شخصي، تحمي ظهري.

- تقصدين بودي گارد ..

- إي بودي گارد، اسم الله عليك.

لم يجبها. تركها تقهقه، وعاد باتجاه الغرفة. كان يحدّث نفسه: "مستحيل أشتغل عند هاي الساقطة؟! آني ما باقي لي غير هالامتحان، وأصير مهندس ميكانيك، أمّا حياة العوز، فتنتهي. لا بد يجي يوم، وينصفني الوطن مثلما بشّرني أبويَه، الله يرحمه."

- راح تندم، نادتْ خلفه سعديّة القوّادة، لكنه لم يكترث.

تخرّج هيثم في الجامعة، ولم يرَ البصرة إلا بعد خمس سنوات كاملات. كانتْ قَدَمَاه قد تعبتا من الوقوف خلف چنبر السجائر في الباب الشرقي.

لم تنته حياة العوز حينذاك، ولم "يُنصفه الوطن"، فما كان أمامه إلا أن شدّ الرحال إلى البصرة من جديد بحثاً عن سعدية القوّادة. لقد شكر الله كثيراً لأنها تذكّرته بعد تلك السنين كلها، ومنحتْه وظيفة الحارس الشخصي، وشكر ذلك المجنون الذي جعله يعود إليها. كان واحداً من مجانين الباب الشرقي قد طأطأ ليلتقط عقب سيجارة، رمتْها إحدى المومسات على الطريق، وحين رأى هيثمَ يراقبه من خلف الچنبر، قال له: "عليكَ بالقوّادات حين لا يُنصفكَ الوطن."

يوم أسود

تذكّرَ فؤاد، وهو يمدُّ عنقه للموت، ذلك اليوم الأسود الذي دخل فيه إلى صالون هارون الحلّاق. كان الأخير حلّاقاً بديناً، يشبه كيس حنطة، ضخم الجثّة، يرتدي ثوباً عربياً، ويُدخِّن بشراهة. طَرَقَ بابَهُ فؤاد بحثاً عن عمل، فوافق بلا تردّد، ومنحه مكنسة، يلمّ بها خصلات الشَّعْر المتناثرة تحت أقدام الزبائن. كانت وظيفة سهلة للغاية؛ تنظيف الصالون وجَلْب الشاي من المقهى المجاور، مقابل مبلغ لا بأس به، يقبضه نهاية كلّ أسبوع. لكنّ فؤاد كان قد اكتشف، ومنذ يومه الأول في العمل، بأنّ أستاذه هذا يمارس العادة السّرّيّة في الحمّام مثل مراهقٍ مكبوت، ويحتفظ بمجلّة «ثقافية» في أحد الأدراج! حاول أن يكون حذراً في التعاطي معه إلا أنّ هارون الحلّاق كان من النوع الذي لا ينفع معه الحذر، إذ جَنَحَ ذات ظهيرة قائظة على مزلاج الباب، وأغلقه بإحكام، ثمّ أسدل الستار. استدرجَ الصبيَّ بعد ذلك إلى الحمّام. أخبره بأنّه يُخبّئ له شيئاً ما هناك. وحين دخل خلفه، أغلق عليهما الباب، وأمسك بيده. كان فؤاد يرتعدُ مثل حشرة اليَعْسُوب الصغيرة، ويلتفتُ يميناً وشمالاً في محاولة للإفلات. حاول هارون الحلّاق أن يُطمئنَهُ، لكنْ، هيهات، فكلّ شيء بدا واضحاً تلك الظهيرة.

مَدَّ السافلُ يده في جيبه، وأخرج عملة نقدية فئة عشرة دنانير، دسّها في يد الصبيّ، وأخبره بأنّه سيحصل على ضعفها مرَّتَيْن فيما لو أطاع. رمى فؤادُ النقودَ في الأرض، وبصق في وجهه، ثمّ هَمَّ بالهرب. عالجَ الباب، لكنْ،

دون جدوى، فقد أمسك الحلاّقُ الدنيءُ بكتفه، وحاول إناختَهُ على الأرض، كي ينالَ منه. في الأثناء، طَرَقَ أحدُهم بابَ المحلّ، فخشي الحلاّق أن يسمعَ صراخَ الصبيّ، فتدارك الموقف؛ دفعه إلى الحائط، وهدَّده بالضرب، إن فتح فمه، أغلق عليه الباب، وخرج، أزاحَ الستارَ، فشاهدَ زبوناً ملحاحاً خلف الزجاج، فَتَحَ له. استغلَّ فؤاد الموقفَ، واستطاع أن يفلتَ من قبضة هارون أخيراً كسمكة أفلتت من شباك الصيد. وبحجرٍ كبير، رمى الزجاج من بعيدٍ، فحوَّله إلى شظايا متناثرة، وهرب. «بسيطة، يا ابن الكلب، أنا لكَ.» نادى خلفه هارون الحلاّق متوعّداً.

بعد ثلاثة عشر عاماً، عصفت بالمدينة ريحُ موت عاتية، إذ هجمت عليها عصابة تُطلِق اللِّحَى، وتكرهُ الاستحمام. كانوا يُكبِّرون كثيراً كلّما قتلوا شيخاً، أو أجهزوا على رضيع، أو باعوا فتاةً في سوق النخاسة. لقد أعادوا عقاربَ ساعة المدينة إلى عصر ما قبل الكتابة، وأنعشوا حياةَ الكهوف وأيّامَ التوحّش. كانوا كلّ يوم يبترون عشراتِ الأكفّ بتُهمة السرقة، ويرمون عشراتِ الشباب من فوق البنايات بتُهمة اللواط، ويقطعون عشراتِ الرؤوس بتُهمة الرِّدَّة. كانوا يداعبون تلك الرؤوس المقطوعة بأرجلهم للتسلية، فالإرهابيون، رغم نتانة ريحهم، بشر مثلنا، يحبُّون التسلية، ويمزحون كثيراً فيما بينهم، بَيد أنّ الفَرْقَ يكمن في التفاصيل لا غير، فتسليتُهم لا تتمّ إلا بدحرجة رؤوس البشر، ومزاجُهم لا ينتعش إلا بذِكْر الحُور العين، ووصفهم لفُرُوجهنَّ.

لقد تحوّلت المدينةُ بين ليلة وضحاها إلى قرية بدائية، يتجوّل في شوارعها رجال الحِسْبَة وأعضاءُ المفاز الشرعية، بينما تمتلئُ أزقّتُها بالوُشاة المُلثّمين. كان أحد هؤلاء الوشاة قد أخبرَ الأميرَ مُؤخَّراً بأنّ فؤاد يستخفُّ بصلاته، ولا يلتزمُ كثيراً بأوقاتها، فأمسكُوا به، وحكمُوا عليه بالرِّدَّة. أخرج أحدُ مساعدي الأمير ورقةً من جيبه، وبدأ يُرتِّل الحُكْمَ الشرعي بلسانٍ عربيّ

مبين وسط هتافات الجماهير المؤمنة: الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر، وحينما فرغ، أشار بيده للسّيّاف بالتنفيذ. اقترب السيّافُ المربوعُ حاملاً بيده سيفاً عملاقاً، أمسك بفؤاد من كتفه، وأناخَهُ للذَّبْح، ثمّ هوى عليه بضربة واحدة، جعلتْ رأسه يتدحرجُ مثل كرة.

قبل أن يُغمِضَ الرأسُ المتدحرجُ عينَيْه، نظرَ بفَزَع إلى وجه السّيّاف البدين الذي انكشف بعد التنفيذ. كان هو ذاته هارون، الحلّاق الدنيء الذي أناخه قبل ثلاثة عشر عاماً، وأراد أن ينالَ منه في حمّام الصالون! أطبقَ الرأسُ عينَيْه حينئذٍ، وردّد مع الجمهور بصوت خفيض: الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكـ ... وهَمَدَ.

فهرس المحتويات

الكوخ الهنغاري ٩
حانة المشرق ١٣
صانع الحلوى ١٧
حصان القصب ٢٥
حفلة السَّحْل الصاخبة ٣١
المدينة الخالية ٣٧
فوق أريكة عرجاء ٣٩
خارطة الملك ٤٣
حامل الحقيبة ٤٩
شاهد زُور ٥٣
شِندي الحزين ٥٧
بِشارةُ غراب ٦١
الأسطى ٦٧
حساء جلجامش ٧٥
انفجار ٧٩
سيّد الخراف ٨٣
كُنْ سمكة ٨٥

كلبٌ نائم ٨٩
وجه النحس..... ٩١
شيطان الضحك ٩٧
لقيط ١٠١
بريد عزرائيل..... ١٠٥
حارس شخصي ١٠٩
يوم أسود..... ١١٣

مكتبة الفكر الجديد

برمزيّة عالية يُعيد أزهر جرجيس، في هذا الكتاب، صياغة معاناة شعب على مدى أربعة عقود مضت، ليقدّمهما إلى القارئ على هيئة حلوى قابلة للهضم. الموت المجانيّ، ورائحة الجثث، والتعذيب الجسدي، والجوع المستديم، والزيف المجتمعي، والمتجارة بالدين، وغيرها، موضوعات جعل منها الكاتب هنا مواداً أوليّة لحلواه التي يعرضها على طبق من السخرية السوداء، كما هي عادته في كتابة القصص. ربما ستصطدم برأس يتدحرج بين طيّات الكتاب، أو تعيقك غيمة وطاويط من متابعة القراءة، أو يهتف بك جلّادٌ يحمل سيجارةً يسلّيه إطفاؤها في أجساد الضحايا، لكنّك تأكد بأنّ كل ما ستراه، ليس فيلماً هوليوديّاً لسيناريست ممسوس، ولا عرضاً مسرحيّاً لفرقة جوّالة من مجرّة أخرى، بل هو الواقع الذي عشتَ بعضه، وعاش غيرك بعضه الآخر، ولو تبادلتم الحكايات لاكتملت الصورة. إنّ أبرز ما يميّز مجموعة صانع الحلوى هي الفنتازيا المكتوبة بلغة بارعة ونكهة خاصة تمنح الكاتب حضوره الأدبيّ والسرديّ المميز وسط المشهد الراهن.

هنا لا يدّعي جرجيس امتلاكه للأجوبة، قدر ما يحاول، بمبضع السخريّة، فتح الدمامل وكشفها للهواء والضمير الإنساني الذي غاب طويلاً عن مأساة شعبه وآلامهم، رغم إجادتهم لصناعة الحلوى.

أزهر جرجيس حلواني ماهر، ندعوكم لتذوق حلواه.

الناشر

ISBN 978-88-85771-07-9

9 788885 771079

المتوسط

مكتبة الفكر الجديد

12-08-2019